نورا أمين

قميص وردي فارغ

قبل الموت

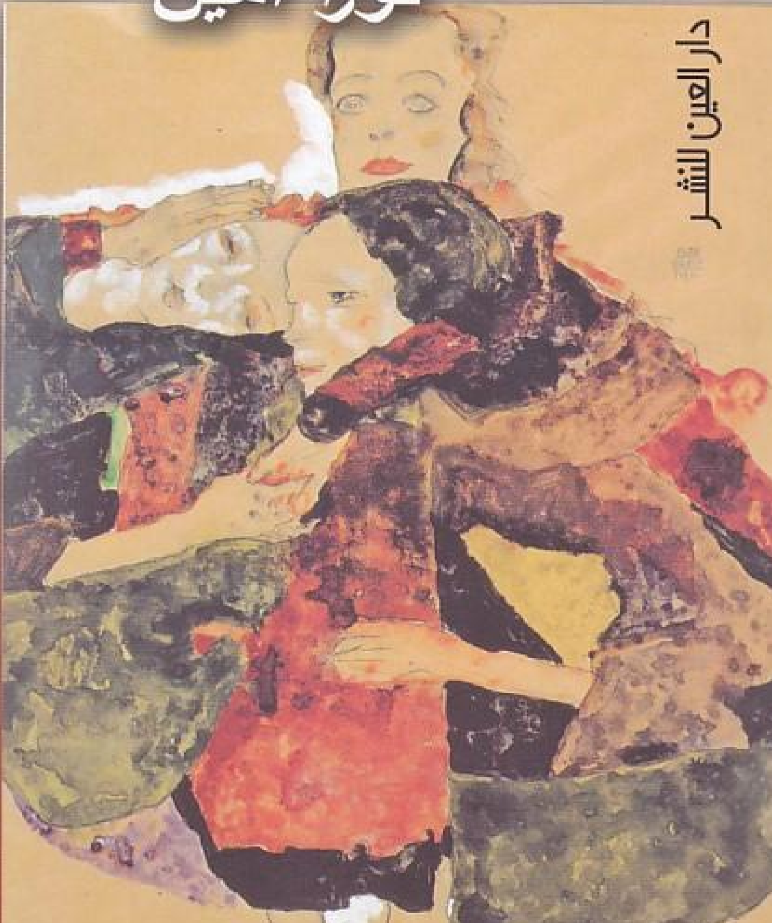

دار العين للنشر

روايتان

قميص وردي فارغ
و
قبل الموت

قميص وردي فارغ
و
قبل الموت

روايتان

نورا أمين

الطبعة الأولى/ ١٤٣٨هـ، ٢٠١٧م

حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر - قصر النيل - القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E-mail: elainpublishing@gmail.com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

تصميم الغلاف: هشام نوار،
لوحة: إيجون شيلي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٦١٠٣/ ٢٠١٦
I.S.B.N 978 - 977 - 490 - 418 - 9

قميص وردي فارغ
و
قبل الموت

روايـــتان

نورا أمين

دار العين للنشر

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أمين، نورا

قميص وردي فارغ وقبل الموت: روايتان/ نورا أمين.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٧

ص؛ سم.

تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٤٩٠ ٤١٨ ٩

١- القصص العربية

أ- العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٢٦١٠٣ / ٢٠١٦

المحتويات

- قميص وردي فارغ 7
- قبل الموت.................................. 117

قميص وردي فارغ

إلى ابنتي "جميلة"

لأننا قد وُلدنا سويًا من جديد

في عام 2017

صار عمرانا متساويين

قميص وردي فارغ

فى لحظات كهذه نفترق، تطوي يدى الباكية في رقة وتكتم، وتصنع لحظة وحيدة من السكون. يسكت كل شيء. يعترض سكوتنا في بعضنا العالم الذي يشوشنا. نتماهى في السكون ونتعارف من جديد. وتبدأ قصة أصارع نفسي حتى أكتبها عوضًا عن أن أبكيها. وقبل أن تلامسني مرة أخرى وتتأكد اللحظة، نفترق هكذا.

أحـــب فيك أنك رجـــل دون ضمائر ملكية. لســـتَ لي. لم تكن لي. ولن تكونَ أبدًا رجلـــي. أنت حر. منى. ومن غيري. أنت حر من العالم الذي يســـقط عليك ذكورته. أنـــت أخي الذي لم ألقه أبدًا. أنت نصفي. دون شـــروط. دون حواجز. وأنا نصف امرأة. نصف عـــذارء. نصف حالمة. عندما أتلقى عينيكِ وراء جفوني، وكلماتك على أطراف لساني يكون أن أعرفك من جديد في طيات ملامحي. في زمن ما كهذا كنت تشبهني، تقلق قلقي وتحلم حلمي. وتشتهيني كما أود أن أشـــتهي نفسي. وفي لحظاتنا المسروقة هذه، تتسلل إلى داخلي، تربض وراء الواقع. تتقاسمني مع نفسي وتحتوي الآتي.

تتحسس أوداجك بأناملك النحيلة. تتوه عيناي فيما حولك، الإضاءة الصادرة من بعيد، الكوفية البيضاء، السترة الصوفية الدافئة، شعيرات قوية على ذراعيك، أظافرك، لا تدخن، وتتيح لي أن أعانقك عن بعد، بسخاء، تحنو عليَّ كثيرًا، وتتلقفني في انحناءات الماضي وانكسارات الإفاقة من السكون.

تتعالى أصوات السيارات والمارة وكل شيء، لكنك لا تصمت كي تفسح لهم، تستمر في حديثك الذي أصبح يحتوي فجوات منك وفترات من صخب الآخرين، بينما شفتاك مازالتا تتحركان، تشغفان بي فأترك العنان لرغبتي، وأفصح عن كل شيء. ربما تتقاطع حكاياتنا كثيرًا وتنطفيء على دهشة جديدة لإيماءة لا تتم، أنظرُ في كوبك وفي حلقك الكلمات التي تختزنها لي، تداعب كوبك وأنت تعلم أني أود لو ألتهم وجهك في قبلة وحيدة طويلة.

سوف أهديك إلى امرأة أخرى، ولن أفقدك، فأنا لم أرِدك أبدًا ولم أرِدني لك. أما خيالنا المدهش فلن يشاركنا فيه أحد، ولن يكون إلا لنا.

أقول لك أنك رائع وأتخيل ما يصبو إليه طموحك وما سوف تحققه، فأفخر بك كثيرًا وأحبك أكثر، أقبض على رائحتك ونبرتك ووجهك الغض، وأتزين فقط عندما أقابلك بالحلي البدائية التي تقدرها كثيرًا والملابس البسيطة التي نختارها سويًا. تحدثني عن نساء أحببتهن

وأخريات سوف تحبهن فأعطيك النصيحة الواجبة، وأتفاءل بطزاجتك الدائمة، ولا أعبأ كثيرًا بملمس ذقنك الخشن إلا عندما يلتصق خدانا برهة لأهنئك على نجاح جديد. قبلتان موجزتان حيث تأملتُ طويلًا، دون أن نحلم بأكثر من ذلك، ولم نكن مقدرين كلٌّ للآخر ولم نكن مقدرين إلا لما كنا له...

احتواءة يد في سكون عابر

شغف نظرة معانقة

تلامس خدين على انتصاب شعيرات نهمة

الزحف على خط توتر شفتين ذابلتين

الخوض في الخيال ينضج مشاعرنا في وثبة واحدة، يضعنا في جعبته ويلهو بنا فنتردد حينًا، ونقدم على رغباتنا المنتصفة حينًا، نتأمل التفاصيل المتدثرة جيدًا في دفء أكمام سترتينا، ونتدبر كيف نسربها ثم نهملها، ونخلق لنا تفاصيل جديدة مؤقتة، تتأكد مرة أخرى من عدد أكياس السكر الأبيض الذي أضعه في مشروبي، ولا تكترث بمشروبك الذي برد، تهمله هو أيضًا لترسم صورة تعبيرية دقيقة لوجهي الشارد. عينان مرهقتان، خطوط قديمة حول الجفون، جمال حساس لا يلعب على أوتار الشهوة، خدان نحيلان، وأنف لا يأمل شيئًا. أمهلك الوقت الذي تريد وأعبث بكلماتي إلى ذلك الحين، أتعلل

بأن لدي الكثير لأحدثك عنه حتى أطيل لحظاتنا المسروقة، لكني لا أفلح فيما وعدت به، أتعاطى ملامحك وأتقن التنقل الجميل من نظرة إلى لمحة لقطعة أخرى منك.

عندما ألتهم جسدك الشاب يومًا سوف نفقد معنى وجودنا أو سوف نصبح حبيبين وتنتهى القصة، لذلك فسوف نحافظ بحكمة على أخوتنا كي نكتب أكبر قدر من القصص بدلًا من أن نبكيها كي نظل نستكين إلى تلامسنا الموجز وشهوتنا المدهشة الرابضة وراء خيالنا، فتستطيع أن تحتوي يدي برهة نحلق فيها نحو لحظاتنا التي لا تتم لأننا نتعمد أن نفترق فيها لتسافر أنتَ وأكتب أنا ونمتد...

عندما أقع في براثن قلقي مما نفعله وتساؤلي عما سوف يكون، أخلع أعضائي عني وأفرشها أمامك، أنكسر، تتسلل روحك الأنثوية الأصيلة لتنتشل روحي من بعيد، أهرع إليك لنتلامس في طية اليدين، لكن لياقتي لا تسعفنى فأصل دائمًا وقد سحبت يدك في موضوعية ونبل، أعود أدراجي إلى حيث براثني، وتظل يدي معلقة في انتظار لقاء جديد أفلح في استثماره كما يجب.. لتحتويني.

* * *

لقاؤنا القادم بعد شهور، وقت أن تكون لحظاتنا قد انتهى مفعولها الممتد، واشتاقت لنا لنجددها. حينئذ تعود إلى الوطن.

* * *

أنا في الحقيقة لم أتبين من جسدك شيئًا، لأنك تثقله بالملابس التي تعشقها لأنها قرينك الدائم، أو لأنني لا أرى جيدًا لكني أعرف أنك تخطو خطوات تشبهني وتمرر جسدك بحنكة من الأماكن الضيقة مثلي. تجلس هكذا. تعلق سترتك على ظهر المقعد هكذا. تستعد لسرد إحدى حكاياتك. لا تتململ في جلستك ولا تأتي بحركات عصبية أو قلقة مثلي. تشحب الملابس من وجودها وتتوارى خلف عقلك، فلا يبقى منها إلا مقاطع من حول الرقبة وفوق الكتفين، بينما بقية المشهد مستتر وراء المائدة وأسفلها وداخل الحكاية وأحيانًا في لمسة أطراف الأصابع لتصلح من وضع ما فوق الكتفين. ثم تنهض من المقعد في خفة دون أن تحركه ودون أن تدب بقدميك على الأرض. تنزلق ذراعاك في السترة بسرعة مذهلة. تعدل من شكل الياقة بحنكة رجل أنيق أو امرأة تهندم زوجها كل صباح قبل الخروج إلى العمل، لا تجمع مفاتيح أو أوراقًا أو أي شيء آخر. ماهو لك يلتصق بك من تلقاء ذاته فلا يتيّتم. تتحرك في الأمكنة بألفة وهدوء تحتفظ بهما داخلك حتى في أكثر المواضع وحشة...

تفلح في الالتصاق بي ونحن نسير سويًا دون أن تلمسني. دون أن تمسك يدي. تتأرجح ذراعاك تأرجحًا بطيئًا، ولا تمنح نفسك للمارة، ولا تفتح حواسك للشارع. تمكث جيدًا في أطراف اللحظات التي كانت، بينما أتساءل لماذا ننتهي، ولماذا نفترق وكيف أودعك وداعًا لائقًا يخلف ذكرى قوية في قلبينا. لكن التساؤل يسرقني من

أطراف لحظاتنا التي تتشبث بها، ويحرمني وداعك على الإطلاق فلا أجد ما أتذكره من فراقنا غير تأرجح الذراعين وهروب العينين وتململ المشاعر التي تود لو تنتهى انتصافها.

كالعادة، ألقي بحيرتي في إحدى سيارات الأجرة بكلمة تلقائية لمكان لا أعرف لماذا أذهب إليه. لا تصافحني كما كنت أتمنى أن تفعل، فأرمى إليك بكلمة اعتيادية بلا معنى وبلا حروف واضحة. ترد عليها بمثلها، ويظفر بي أخيرًا مقعد السيارة. أتعمد ألا أدير رأسي لأنظر إليك نظرة أخيرة كي لا تعرف أني نادمة على الرحيل. فقط أختلس النظر بعين واحدة إلى ما يطرأ عليك وأنت وحيد، أجدك تلوح لي متأسفًا لأني لم أفعل بالمثل، أو ربما لأنك لا تود أن تسافر هذه المرة.

وعندما أتحدى السيارة المسرعة وفق رغبتي وأرفع يدي نحوك تكون قد أسدلت ذراعك غير عابئ بالآتى. أراك تخطو مسرعًا في همة. ذراعاك تتأرجحان بقوة. قدماك تكادان تتقافزان. ثم صورتك الخلفية تتطابق مع ظل قاتم غير مميز. تتباعد فلا أدرك منك شيئًا، ولا أتبين لك جسدًا. أحار في همتك وأدير رأسي المنكس نحو السائق راجية إياه مثل كل مرة أن يقلل السرعة إذا أمكن...

***

أعرف الآن بفعل تراكم الأحداث، أنني أتقن الفرار من الرجل الذي يفرض عليَّ حبه نحو ذلك الذي أجذبه أنا ليفتتن بي فأتخلص من تهمة صورة المرأة التي تقع عليها دومًا الأفعال، التي تتلقى الحب الذكوري على وجهها مكتومة الأنفاس، معصوبة العينين، مدججة بالغضب. اصطفيت رجالًا طيبين، يشبهون أمي أحيانًا، ليكونوا محل ثقتي، يتلقون دفاعي بدلًا من الرجل الآخر. أحبوني في بساطة فأديت معهم دور الرجل الذي أفر منه. لم يتمردوا ولم يكتشفوا السبب وراء قوتي، كنت هكذا قد انتقمت لنفسي لكن من الرجل الخطأ. كنت قد تحولت بلا إرادة إلى أن أكون "الرجل الخطأ" أو أن أكون أنثاه. وفي الطريق تساقطت قطرات حب عذري لم أكن أبدًا مقدرة لها، لذلك فقد جفَّت سريعًا، واستحالت هواء كففت عن استنشاقه تدريجيًا.

أما وقد وجدتك فلم تعد بي حاجة أن أبحث عن هؤلاء الطيبين وأوقعهم في حيلة انتقامي التعس. كل ما عليَّ الآن أن أفر إليك. ألقاك فيتأكد صمودي في وجه الذكر الآخر. يتحقق فراري الآلى دون ضحايا. دون حب. دون أبرياء جدد. لذلك فوجودك ينقذني من دائرة حيل التكرار التي أدمنتني، وربما يومًا يقيني التفات العنفوان الذكوري نحوي فأنزل عن كاهلك حمل تأكيد أنوثتي غير الخاضعة، عندما نتسلل سويًا إلى خيال يجمعنا بلا سلطات غرامية. عندها تنمحي صورته وذكراه، ونصبح وحدنا وجهًا لوجه. بلا وسيط وبلا شبح

الأب الذي نجاهده سويًا. أنا كي لا أكدر نفسي بسلطة أستدعيها إلى حقلي وأنت كي تكتمل ذكورتك بك وحدك، دون منافسة مع فحولته التي لا توجد إلا إذا تغذت على ضمور عينيك وخيالك وشهوتك للتحقق، ولحب نفسك دون صراع - يستنفد روحينا - مع ذلك "الرجل" الذي نستحيل في حضرته عذارى في انتظار الستر. ربما يومًا نتقي التخنيث الذي يهددنا ونلتقي. على استدارة الجفون واستطالة الأنامل. وداخل الحشا. بلا تململ ولا تأرجح ذراعين. عندها لن نتكور سويًا في طيات ملامحنا. أو في الخيال. أو في القصة. سوف نشرق ونتفجر ونتحاب. تكون رجلي، وأكون امرأتك...

***

الزجاج الجلي الذي يجاورنا يتيح لنا أن نرى الآخرين. نتهكم عليهم، أو نأسف لهم. أو نتعجب للتشابه. لكننا لا نسترق النظر إلى الرجل أو المرأة اللذين ربما كنا نجالسهما الآن. ولا نسترق السمع لقصتهما العابرة.

***

أعجب بمصريتك ورجولتك البشوشة. شيء ما فيك يبث طبائع خالصة. خمري البشرة دون سمات مميزة. جسد عادي. ترتدي ما تشاء من الملابس من أي مكان تجوبه من العالم لكنك ترتديها ولا تدعها ترتديك. تجتذبها لتكمل أبعادك الخارجية. تذكرني بصبيان

الأهرامات حول الجمال وأوراق البردي المشكوك في أمرها. طازج وأليف وبشوش ومتاح. مصري دون خبث الأوبئة النفسية التي اخترقته فأحالته حجرًا متألمًا حينًا أو مسخًا مؤلمًا في الحب حينًا. أنت تريد ما تريد بطيبة وتحقق لي ما أريد عن طيب خاطر، كأنك معزوفة رائقة تمتص تلوث القرون والعالم الخارجي وتترقرق في سلام وحب. باختصار أنت تعيدنى إلى وطن قديم. وطن أيام زمان في حكايات جدتي. وطن أحبطه أهله فلم يتذوقوا حبه في رواية أمي. أو وطن ليس له وجود في تصور أبي. عندما أشعر أني بلا أرض وبلا تاريخ يحتويني، أجدنى سائحة عجوزًا تأخذ أنت بيدها لتلامس جدران البيت القديم، وتحكي لها حكايات البردي المذهلة. تروي لها عن ألوانه التي كانت. تعلمها امتطاء الجمال والاستسلام لفراغ الصحاري وهدوء البال. تلقنها تفاصيل الحياة المصرية وتدربها على التأقلم الجميل. والانتماء إلى إيقاع يديك وهما تقوداني إلى ملامسة التاريخ. لكني أجدنى في نهاية الرحلة مجرد سائحة تجيء إلى زيارتك لتوقظ الحنين إلى زمن المشاعر والانتماء الخالصين والإنسان البدائى الخالص الا من جغرافيته المصرية. هكذا أنت تكرس غربتي عندما ألمح على بشرتك وأطرافك أصالتك. وأتساءل كيف تمتد وطنيتي خارج أعتابك وأنا مازلت غريبة أقنع بالدهشة والاكتشاف والتذوق. وكيف أن رجلًا - خالصًا مثلك - سيجعلني أنقب داخلي عن امرأة تشبهه لم يفسدها المجتمع ولم يقنن حساسيتها

الأنثوية أو يغربها عنها، امرأة أنثوية التاريخ ومصرية مثلك من أهل زمان. يا للمصادفة...

تفتنني مراهقتك بشدة عندما أراك تداعب صديق طفولتك. تفتعل العراك معه أو تراقصه أو تقبله بعشم قرب أذنه، يحتضنك ويربت على ظهرك وعلى ذكريات الطفولة والبلوغ. أنتما كبرتما سويًا. اكتشفتما رجولتكما في ذات الوقت. واندهشتما للإمكانيات المطروحة. تعرفان جيدًا تفاصيل اللقاءات الجسدية الأولى لكل منكما لأنكما ترويان انتصاراتكما بدقة، وتداومان على قياس أيكما أمهر ذكورة وأقوى. الفتيات بينكما مزحة عابرة مثل الفحولة المأمولة، أو تجربة تستحق العناء من أجل اكتساب الخبرة الممتعة. وأوجاع النضوج تتوه في لحظة أن يربت أحدكما على الآخر، فيزكي ذكريات الطفولة والصبا والاكتشاف. أندهش عندما لا تستحي مما أستطيع قراءته من طفولة وسذاجة في لقائكما. أنت هكذا لا تتجزأ. ولا تفتعل أو تكذب. أنت طفل عبقري يمتلك حسًا ذكوريًا أكبر من سنة فيدير رؤوس النساء الخبيرات أو العاقلات، حتى يثمل بذكورته وينتفخ. فيصبح ذكرًا معتادًا وثقيلًا وفحلًا.

لن أتمادى في الأمر وأدّعي أنك مثلًا لن تسرد لصديقك هذا، أو لشلتك، لقاءاتنا المتباعدة. لكني أعرف أنك لن تسرح بخيالك المبدع وتضيف أبعادًا لم تحدث أو تختلق أوهامًا لإضافة مقبلات تجعل

القصة شهية لأصدقائك. أنت سوف تكتفي بما حدث لأنك تحبه. سوف ترويه بحنكة راوٍ فرعوني من الشعب النبيل المطحون. وربما تنعم عليَّ ببعض التفاصيل التي تقربني إلى فتاة أحلام جيلك وعصرك ولن أمانع في ذلك فعليَّ أيضًا أن أعرف كيف أكون متاحة...

لأنك تعرفني بالحدس، فأنت تعرف أننا لن نفقد خيالنا ونسقط في تنميط متكرر لمجرد أننا امرأة ورجل دون أن يكون لنا يد في ذلك. أو لنقل أني آمل ذلك. وآمل أن تقدر حبي للاحتفاظ بشعيراتي الناعمة فوق ذراعي لأداعبها وقت الفراغ، وأنا أتأمل كيف أنك طبيعي ومألوف لطفولتي، كيف أنك لم تستثمرني كدعابة ثرية وعابرة، أو كمنجم لتقديم المتعة الفورية دون تكلفة مثل نساء الموانئ والترانزيت، فأنت أكثر براءة من أن تورط نفسك في تلك اللعبة الخالدة فتتملكك.

***

بالأمس، وضعتُ صدرك على صدري، كتفيك على كتفي، وتلامست أثداؤنا داخل القميص الوردي الذي أبتاعه لك. لم تكن أنت هناك. لذا تأكدت جيدًا أن القميص مطابق لمقاسي. اشتريته.. وتمنيت أن يناسبك تمامًا، أن ترتديه فنتطابق أو نتناسب معه. ونستطيع أن نتبادل قطع الملابس ذات يوم.

***

عندما شردت عيناك هذه المرة نحو الركن الأيمن من المكان المكتظ، لمحتُ ندبة فوق طرف حاجبك الأيسر. اكتشفت أنني لم أرَ أبدًا هذا الجانب من وجهك، ولم يطرح وجوده من قبل أسفل عينيّ. كانت العين تتألم للندبة وتوحي بشيء من الانكسار ربما تسلل إلى إحساسي بوجهك من قبل دون أن أعرف السبب، وترك ذكرى مبهمة من ندبات الطفولة الهائمة أو آثار الولادة. لكنك لن تسعى إلى محوها لأنك ألفتها. أو هكذا قلت لي عندما سحبت عينيك من الركن ووضعت وجهك في مواجهتي كاملًا. وأنت تربت على الندبة...

***

"لم أكن أعلم أن بالدنيا هذا الجمال. أن الهواء يمكنه أن يكون خفيفًا بلا وزن فنستطيع أن نتنفسه ملء رئتينا. أن الأخضر يمكنه أن يكون ناصعًا. أننا نستطيع أن نلهو وسط الثلوج ونعبث بها كيفما نشاء دون أن نتجمد. أن الأشياء تحدث دون ألم ودون التواء. نفتح عقولنا على مصراعيها ونترك أفكارنا تتراقص في الخلاء بلا حرج".

هكذا اتخذ القطار مساره بين ربوع البلد الغربي الجميل، الذي افتتنت بسحره. دون أن تفقد خريطتك القديمة. منحتك للسفر. وتركتك تحكي وتأخذني معك. كنت أعرف أنك لن تغترب أبدًا وأنت داخل قميصنا. وأنك في النهاية سوف تحكي لي كل شيء.

وسوف تطلعني على حبك الجديد للشتاء وللغيوم وللبشر المتدثرين في ملابس ثقيلة يخطون بهمة - مثلك - نحو المستقبل. حتى أتابع نضوجك بعيدًا عني. وأعرف كيف أسجل توقعاتي لما تفعله، بينما أنتظر عودتك وأكدس نفسي بالأقلام والأوراق ورغبات الصعود الطموح. وعندما تجلس أمامي وتسرد تفتح إدراكك على ما كنت تجهله، سوف أخفي عنك في إصرار أني ركبت هذا القطار من قبل، ومررت بمشاهد قبور وجدب وتمزق. لأن انبهارك الطازج لن يتحمل هذا الأمر. ولأنى أود أن أخضع لسردك لأطول وقت ممكن. وأنا أتساءل عن ملمس بشرتك في هذا الجو البارد جدًا...

***

بصوتينا الطفوليين نثرثر فجأة وفي لحظة واحدة بكلمات مترادفة - في الأغلب - عن دهشتنا من هذا الزمن - كأننا ولدنا توّا - ومن تلاحق أحداث الحياة بنا. شيء مثير أن نلتقى ونحن مازلنا شبابين. مازلنا نأمل في الكثير. نحمل في طياتنا ملامح الأم والطفولة والصبا والوطن - ربما - والرغبة في الانتماء والتحقق. ونطمع يومًا ألا ننطمس، وإن كان الأمل الوحيد هو في لحظاتنا القليلة المتباعدة والمنطبعة في ذاكرتينا.

تهرب العيون مجددًا هروبًا يؤذن بموعد الافتراق. تتشبث بثلاثة كتب ابتعتها لي أثناء سفرك حتى توثق معرفتي بأدب العشق، بالقرطين النحاسيين في أذنيّ، وما تبقى من ماء في كوبي. ترتمي عيناي على

المنضدة التي اخترتها في موقع مثالي يجاور تمامًا موقع المنضدة التي أكتب عليها كل يوم بينما النُدُال يمطرونني بخدماتهم، أنا المرأة الوحيدة غير معروفة الهوية، ثم تشرد العيون كنهاية تقليدية لهذا الحدث. تصطدم بمنظر السيارات المتزاحمة وهي تكتسح الشارع العجوز، وتنتهك ما تبقى من نضارته. تنطفئ المشاهد التي تخيلناها سويًا وراء عيوننا. وتنسحب تلك السينما الجميلة. المدهشة. تتساقط بعض التفاصيل التي لم نتمكن من إنجازها:

- كأن نرتدي قميصنا الوردي، ونتلقى عليه ظلالًا ملونة لشاشة عملاقة تحتوينا فينفذ دفؤها إلى جلدنا.

- كأن أحتضنـــك في حمـــاس وأنت على قمـــة طموحك دون تنازلات.

- كأن نلتقي سويًا بامرأة نحبها سويًا اسمها مارجريت دوراس واسم حبيبها "هيروشيما".

هكذا يرحل الرجل والمرأة اللذان جاورانا دون أن نلحظهما. يتململ جسداهما. ثم تتلاشى خطواتهما المتخاذلة على درجات السلم الرخامي المنزلق إلى أسفل. حيث يظفر بكل منهما مقعد سيارة مسرعة. في لحظة كهذه، يتحتم أن نفترق. ننطوي. أو نسافر إلى الأبد. وتنغلق العيون تمامًا. هكذا...

Cut

* * *

فاصل أول

وهكذا يصير الا نلتقي مرة أخرى.

* * *

أفتح باب المنزل وأقذف بنفسي إلى الخارج. أبتلع هواءً ثقيلًا متربًا. أبحث عنك في جميع الأمكنة. تخدعني أذناى كثيرًا فأظن أن صوتك يترامى إلى مسامعي. أحن إليك فأعتدل في جلستي. أو أتمهل في مشيتي. أتاهب لتلقى عبيرك. بينما سراب قد تمكن مني.

لم نلتقِ منذ الصباح وحتى الآن. وأغلب الظن أننا لن نلتقي فيما بعد، لكني ما زلت أتشبث بخيوط الأيام الماضية وهى تنبت في رأسى في طيات اللحظات في شكل ذكرى قادمة. فعلتُ ما أردت. أنهيتُ الفصل الافتتاحي الماضي بتعاظم الأبيض الضبابي وحده لتبتعد عني أية شبهة في استغلال الخيال الأدبي لأغراض غير أدبية. عنونت الأمر برمته "قميص وردي فارغ" راحة لضميري. ثم ذهبتَ إلى السفر من جديد، وكنت أعلم هذه المرة أن ما صار قد صار وانتهى إلى قصة ذات شاعرية خاصة. أما أن تعود ونعود ونستكمل القصة أو نخرج منها فذلك مثله مثل صوتك وعبيرك السرابيين.

وقعت في أسر افتتاني بكتابة نشوتي المأمولة. ضحيت بما كان يمكن أن يكون في الواقع، أملًا في أوراق بليغة وخيال موثق. اخترقت المحظورين: كتبت عن واقع سافر، عن رجل من لحم ودم، عن داخلياتي أنا المرأة الراوية الوحيدة. وأعطيته تلك الكتابة دون أن أعلم بأمر النصيحة التي بعثتها إلينا مارجريت دوراس: "لا يجب على النساء أن يدعن عشاقهن يقرأون ما يكتبن".

على أية حال، يبدو أيضًا أنك عندما قرأت قصتنا شعرت أنك مثل فئران التجارب، وأني تجاوزت حدود كونك ملهمي لأجعل منك مادتي التي أستغلها. وها أنا أسقط وحدي في هذا الفخ. أحبك بعد أن لم تعد موجودًا ولم يعد من الممكن أن تكون ملهمي. أحبك رغم كل شيء ورغم أني لا أريد لنا أن نسقط في تنميط متكرر، ونصبح حبيبين لمجرد أننا رجل وامرأة دون أن يكون لنا يد في ذلك. ربما لن تعود هذه المرة وتسرد لي أحداث رحلتك لأنك لم تودعني قط قبل أن تسافر. ربما سأظل أتطلع إلى "القميص الوردي الفارغ" معزية نفسي بأنه أفضل ما كتبت. وهكذا يصير ألا نلتقي مرة أخرى. ويصير أيضًا أن يزداد نهمي للخيال. وللكتابة.

***

أمد ذراعي نحو الكون الواسع.. تتعملق أصابعي.. تصبو إليك حيث تكون.. تلمسك.. تقبض عليك..

تقطـــع بك رحلة عــودة خاطفة من البلاد الغريبة لتســتقر في صدري، ثم أكتب هذه العبارة المتســائلة: "متى أنعتق من تعاطي ملامحك في الكتابة؟ متى يســقط غرامي باستثمار التفاصيل التي تقدمهـــا لي كفرصة أدبيـــة؟ متى يتنحى ذلك الطـــرف الثالث عن علاقتنا وتصبح الأشياء غير مجازية؟"..

فى الظلام.. عندما تمضي الأشياء دون زمن، ودون إيقاع، يحدث أن أهفو إليك وكأنك تسير بمحاذاتي مباشرة. أتلكأ. أفتعل تفاصيل غير ذات مبرر تمكنني من استغراق وقت أطول في المضي، وتمنحك فرصة ربما للظهور. لكني لا ألتفت يمينًا أو يسارًا أو إلى الوراء، أؤدي ألعابي الصغيرة فقط وكلي أمل عارم. أغمض عيني أحيانًا وأتمنى أن تظهر ثم أفتحهما فلا أجد إلا ظلامًا. أحبط وأتجوف من الداخل. كأن حواسي تتساقط وتتحدر داخل أحشائي. وأصير ورقة شجر تجرفها الريح على الأرض وتزيحها وفق هواها.

ثـــم تتوقف الورقـــة. ليس لأن الريح قد كفـــت عنها وإنما لأنها اكتشفت أنَّ لها اسمًا يناديها به "صوت ما"، ثم يقترب عندما يصبح حرف الألف من وراء الراء منطوقًا لأول مرة، منفتحًا على دهشة ومرح طازجين. يمد يـــده إلى أطراف أصابعي الممددة في الهواء حتى يســـحبني داخل كفه وينتشلني من الأرض. أصعد من صوته

إلى عينيه فنتلاقى رغم كل شيء. ويصير أن نصير من جديد...!

نجحت أنت في إثـــارة دهشـــة مريرة بداخلي. تغلبت على مواضعات القصة، وعلى ملامح الملهم الأدبي أو الموديل، وعلى خيالي الذي ظن أنه المنتهى. قفزت فوق جميع ما توقعته الراوية الوحيدة من أنها مبدعة الأحداث الوحيدة وسبب إحباط واقعها الذاهب نحو ضمور أكيد. الآن لم أعد أقود ولم تعد الكتابة مصدر نشوتي الأولى والأخيرة. لأن الواقع الذي استللته من وراء ملامحك قد تمكن مني وبعث بهوسي للكتابة إلى مكان مهجور أو سري.. هكذا نلتقي، ليس في طيات الخيال أو في القصة، إنما في عالم الواقع الذي يبدعنا أكثر عبقرية وجمالًا.

هل ينبغي الآن إذن أن أمحو السطور الماضية - فاقدة الشهوة - قبل ظهورك ثانية؟ أغلب الظن أني لن أفعل لأنها تحمل أجزاء مني ومنك - ولأنها ربما تكون فاصلًا ضروريًا لقراءة الكتابة القادمة للقاءات كانت من المفترض أن تحتل المفتتح بدلًا من أن تصدر منه.

* * *

قميص وردي لا يريد أن يكون فارغًا

طبعًا ستتعجب من اشتياقي إليك وأنا التي وضعت نهاية "القميص الوردي" بأنه فارغ. لكنني سوف أتحايل على تعجبك بأن أقول أن القصة ما هي إلا قصة، وسوف أخفي عنك أن ولهي بك قد انبتته القصة، ولن أقول لك أن القصة ما هي إلا أول قصة حب أكتبها وربما تكون رواية ذات يوم فتصبح أطول حالة نشوة مررت بها في حياتي.

ترددت كثيرًا قبل أن أجالسك. راودتني نفسي أن أصطنع الانشغال بأمور أخرى أكثر أهمية منك، أمور أخرى تقيني افتراش ولعي بك أمامك. ذهبنا إلى حيث يقودنا المكان الذي التقينا فيه كي تساعدني الظروف في امتصاص شغفي بك قبل أن نتحدث. ندوة أخرى أبوح فيها بما يحويه رأسي.

استعرت بعض المفردات التي اصطلحنا عليها وأطلقتها: الظلال الملونة مثلًا على ملابسنا أمام شاشة عملاقة تبث إلينا خيالها، خصوصية أن ينتمي المرء إلى زمن كهذا ويصبح مثله. لمعت عيناك من بين الحاضرين. ولما كنت أخشى الخروج عن موضوع الندوة فقد أبعدت نظرى عنك وتهت بين الأرضية الناصعة وهواء الغرفة والسقف. صفقت لي بحماس وأردت أنا أن أمسك بيدك فور الانتهاء. ثم استهلكنا وقتًا طويلًا قاتلًا في محادثة الآخرين قبل الفرار إلى الخارج. كنا نقف سويًا وجسدانا يتخذان الوضع نفسه ورأسانا يغليان بالفكر نفسه وشيء ما على طرف الشفاه يدفع بنا إلى رغبة

في التطابق. أو العناق. وفي خلسة من الجمهور جرينا إلى الخارج لنزيح أحداثًا اجتذبتها أنا لتعترض جلوسنا سويًا. لنطفيء ضجيج الزحام ونستكين إلى لحظة سكوننا الجديد.

في الطريق أردت أن أقبلك.

***

تقفز عيناك من رأسك قبل أن نرسل النادل بطلبينا، تريدان اقتناص جميع العبارات التي كتبتها دون أن تكون موجودًا. ألمح أنك لم تتغير. ربما لم تسافر على الإطلاق هذه المرة. أو ربما سافرت بجسدك وتركت حواسك في مصر على سبيل التجربة، فأنت لم تظفر هناك بأية تجربة.

تقترح بقوة أن تتجاوز المقدمات الإيمائية التي صنعناها في الافتتاحية ونتحدث مباشرة عن القميص الوردي. أسعد لذلك كثيرًا فهو ما كنت أنتظر، ومع ذلك فخوف ما بداخلي لا يزال يتحدى متعتي باللحظة لمجرد أنني تمردت على نصيحة مارجريت. أقول لك إذن إنني اليوم سوف أنصت إليك فقط، وأدعك تعبر عن صدمتك من بعض الأفكار التي احتواها النص لأنها من مستلزمات "الكتابة المستحدثة". ولا أزال أحاول أن أحتوي خوفي من أن تكون قد صدمت فيَّ أنا. تضع أصابع اليد اليمنى بين فراغات أصابع اليسرى، ثم تدع اليدين تسترخيان في سلام. لا تزال أصابع

نحيلة متوسطة الطول مهذبة ومشذبة الأظافر. جميلة. يبدو وجهك متعبًا بعض الشيء، ربما فقدت بعضًا من وزنك في هذه الرحلة.

هل أقول لك أنني افتقدتك كالحياة أو أجاهد نفسي وأصمت؟ هل تعرف أنني كنت أداوم على قراءة قصتنا كلما تساءلت عما تفعله الآن. وفكرت أن أكتب قصة قصيرة جدًا عن الانتظار لكني لم أفلح فيها بالطبع.

ماذا قلت الآن؟ أسألك ما آخر كلمة قلتها. تقول "الآن" وأعرف أنك تعرف أنني لم أسرح بخيالى بعيدًا عنك ولم أفكر في الكتابة، فقط تملكني خوفي من أننا نفلت من المتن الأدبى الذي صممته لنا. تتابع ما قلت كي تتيح لي وقتًا أتماسك فيه وأتعافى من "المتن الأدبى". ثم تصمت. أحتويك بعيني وأظن أن جميع من حولنا يرتابون في تلك المرأة التي ربما تعمل بحنكة على أن تراودك عن نفسك. سوف أنتهي الآن من طبق الطعام الهائل الذي قررت التهامه دفعة واحدة بدلًا من أن التهمك على مسمع ومرأى من هؤلاء. أزيحه فارغًا وأشكره أنه تحمل توتري وشغفي. تتجرع ما تبقى من مشروبك الرائع الذي طلبته لما يحويه من مجاز أدبي لم نتلاعب به من قبل. جاء النادل في همة ليفسح لنا ساحة العناق، حمل الأشياء: طبقي الفارغ وقدح "الكابوتشينو" ذا الرغوة الشحيحة المتبقية في القاع. وأصبحنا وحدنا. عاريان من المجازين اللذين كانا يغلفاننا حتى الآن...

تقول لي أن الثريا المدلاة من السقف نحو وسط منضدتنا تلقى ضوءًا جميلًا على وجهي. تبتهج الثريا وأومئ أنا بالموافقة لأدع لحظة الحرج تمر. وأقرر أن أميل من حين إلى آخر لألامس شعاعها وأتلقاه على وجهي ربما تكتمل في رأسك لقطات ما لإضاءات متتالية. فهل مازلتُ خائفة بعد هذا التشجيع المبدئي؟ أتذكر فتاة شابة عرَّفتني بها ذات يوم وحدثتني هي عنك فيما بعد. ألقي باسمها فورًا وأقترح أنها ليست جميلة مثلًا كالمعتاد أو مرحة أو طازجة، بل إنها فريدة وطرازها لا يظهر في هذا الزمن إلا نادرًا. تتفق معي مرة كي تريحني ومرة لأنك تنبهت إلى محاسنها. ثم تطرق قليلًا لأنك أعجبت بها لكنك لن تسقط في هذا الفخ الذي أحفره لك. على الأقل الآن. لذلك فشلت المحاولة الأخيرة لاستعادة الحصون.

المجاورون قد رحلوا مجددًا، ربما مبكرًا عن كل يوم حتى يساعدونا في القادم. تركوا إلى جانبنا حائطًا ودودًا فقط، نستطيع أن نستند إليه إذا انطفأت الثريا مثلًا. تأتي بحركة تأهب للإفصاح عن رأيك في التناقض الذي تراه بين توثيقي لمشاعرنا وإيماءاتنا وبين توظيفي له لأحقق كتابة ما أطمح إليها، تتساءل كيف أجمع بين هذا وذاك، كيف أكتب سيرة ذاتية لنا وتكون متخيلة في ذات الوقت؟ أجيبك تلك هي عبقرية الكتابة. وأقلق أنك قريبًا سوف تشعر أني أستغلك أو أستنفدك أو ربما ألقي إليك بمشاعر وأحداث حتى ألتقط رد فعلك لها فتصبح فأرًا لتجربة كتابية ليس أكثر.

أطمئنك بسرعة بوعد طائش - لمجرد أن يمتد لقاؤنا - بأني لن أكتب تفاصيلك بعد اليوم ولن أوثق ما بيننا. ومع ذلك أحرص على إفساح هامش ضيق فأقول لك أن جميع لحظات نشوتي كتابية، وأن قمة تعلقي بالقميص الوردي كانت لحظة أن حفرت حروف وكلمات وجمل فقرة القميص الوردي، وأردد ما كتبته آنذاك وأحاول أن أستحضر تلك النشوة المستعصية على الاستحضار والتكرار فأحصل عوضًا عنها على نشوة جديدة في التلفظ بكلمات القميص الوردي أمامك. لكني أغمض عيني عن هذا الاكتشاف حتى لا يعلو ولعي بالكتابة على ولعي بك أو نصبح عبيدًا لها. وأتوقع أن يومًا ما سوف يتحتم عليّ أن أختار بين مذكرك ومؤنثها.

أستطيع أن أفطن بصعوبة - لأنني مرغمة - إلى أنك تريد أن تعدل شخصيتك في قصة الافتتاحية، وأعتقد أنك لا تحب تجسيدي لك، وربما أيضًا أنك لا تحب خيالي ذاته. فأرد عليك في حزن وقلق معلنة خبرًا تسمعه لأول مرة هو أنني أضفت إلى كلمتي "قميص وردي" كلمة "فارغ". تصطدم بالكلمة. وتنصدم. أضيف "بل أردت أن أجعلها "قميصًا ورديًا سيظل فارغًا" إمعانًا في الأمر"، ويبدو أن ردي هذا لم يكن موجهًا إلى تعليقك على شخصيتك وإنما كان محاولة مني كي أحافظ على رباطة جأشي، وكي لا تظن أن هذا القميص هو حياة أو موت بالنسبة لي.

تتوتر وأتوه. أخشى ألا نستطيع استرجاع خيط الحديث الذي نجاهد لخلقه بعيدًا عن الخيال. تقول إننا طاقتان نفسيتان هائلتان اصطدمتا كلٌ بالأخرى دون أن تكون على وعي بها، تقول إني حاولت امتصاص الطاقة الأخرى أو الصدمة لكن دون أن أعرف ما أنا بصدده. لذلك فكثير مما أتصوره منك ليس صحيحًا. أما أنا فاكتشف مقولة فلسفية أتوسم أن تكون على نفس مستوى مفهوم الطاقة والامتصاص، وأعلن إليك أن هناك نوعًا آخر من المعرفة بالحدس، وربما كان هذا ما يقودني إلى شخصيتك. وهنا تتفوق على جميع المقولات معلنًا حقيقة ميتافيزيقة تمتلكها: أنك "إله الحدس". أصمت وأستمتع بعريي أمامك إذا صح فعلًا أن تكون كذلك. ثم ينزلق من فمك سؤال ينهي مرحلة كاملة من علاقتنا: "هل أنتِ على استعداد لتغيير القصة؟".

لا اصدق أذنيّ وأظنهما تلهوان بي. فأجيبك بحنكة أدبية تعودت على الأسئلة الصحفية حتى حفظتها عن ظهر قلب، وأقول أني على استعداد لكتابة عديد من القصص وربما الروايات أيضا. وأنتبه إلى المجاز الذي حملته العبارة رغمًا عني، فهل تتوق إليك لغتي إلى هذه الدرجة كي تتمرد على مرسلها. لكن المدهش أنك لم تلحظ المجاز الذي لم أقصده رغم أنك أنت الذي قرر استخدام المجاز الأدبي بسؤاله. وهنا أدرك لأول مرة كيف تقلق أو ترهب اللحظة والإفصاح. تقبض على سلسة المفاتيح الفضية وتشرع في فتحها

دون وعي، وكأنك تلمسها لأول مرة. تضغط على لسانك وتقول كالمجبر ليس هذا ما أسأل عنه، أو هذا جواب لسؤال غير الذي سألته، فأكتشف شيئًا من عمق شعورك نحوي ولمحة من تراث شخصيتك خارج الخيال والتوقع. أجَن باللحظة وأتمنى لو يخلو التاريخ كله لنا وحدنا الآن. أنت تريد فعلًا أن تغير النهاية، لا تريد للأبيض الضبابي أن يتعاظم وحده ولا تريد للتفاصيل التي لم نتمكن من إنجازها أن تمر. تريد أن نستمر ونتفجر. تصير رجلي وأصير امرأتك ونكتب من هذا السياق.

لأني لا استطيع أن أعانقك الآن، أحتوى خدك الايسر في يدى وأبتسم في تعاطف وانتصار. وأدرك أنك لم تطمئن إلى قراري بعد ولم تعرفني بعد ولو بالحدس، عندما تنبس بحروف مترددة يفيد تجمعها بأنك تظنني أخيب أملك وأطوي الدفتر على القصة، بينما أحداث رائعة تترامى لي عن رواية أشرع في كتابتها الآن، أحتفظ بالقصة الأساسية التي أسأت التعبير باستخدامها، وأدفع بكل شيء في أفعال متضارعة وننطلق. أستكمل حديثًا متعبًا ينبغي أن ينتهى بقبلة - على الأقل - وأتمتم بأشياء غريبة لا علاقة لها بما يحدث - اسم فيلم شاهدته قريبًا أو كلمة من قصة كتبتها فيما قبل - وأحاول أن أتفادى صدام رغباتنا هذه المرة التي تجرى أسرع من الضوء.

يتكفل بنا الواقع، يرسل إلينا صديقك. وجه أسمر ثقافة أمريكية.

لسان ثرثار كالقنبلة الموقوتة. يدفع بنا بمجرد جلوسه على مقعد مجاور إلى معترك الشارع المصري في هذا الزمن الثرثار المر. أرتطم رغمًا عني بغربة ما يبدو أنها تنقب عني حتى في لحظة انطلاقي. ثم يزداد الواقع سخاءً فيرسل إلينا بالفتاة الحاذقة التي ذكرتها منذ حوالي أربع صفحات أو أقل. تلقي السلام في رقة وذكاء وجهل بما يدور. تقبلني على خدي. وتتساءل في براءة عما إذا كان اليوم عيد ميلادي. أحرج وأتوه. وأرد بشيء ما. تتلاحق لحظات فارغة، ومكتظة بالثرثرة. لا أدرك مني شيئًا. ومنك لا أجد إلا رغبة عارمة في الإبقاء عليَّ. أنقسم إلى جزيئات، أتشتت ويضيع تركيزي تمامًا. أين نحن الآن وهل هذا جدير بالدخول في المتن الأدبي للقصة، أو فلننقل للرواية إذا كان لها أن تمتد إلى هذا الحد؟

ما يستحق هنا فقط هو سؤالك الخجول الجريء واحتواءة خدك في كفي على سبيل المجاز. أي أن القميص الذي أجبرته على أن يكون فارغًا، ربما تحرره أنت وتطلق له صوته ليقول إنه "لا يريد أن يكون فارغًا".

* * *

فاصل ثانٍ

ينبغـــي أن أكتب هنا عما حدث بعـــد أن انفصلنا. وعلى الرغم مـــن أنني التي قررت هذه الفواصـــل الموجزة إلا أنه يبدو أنني لن أســـتطيع أن أضيف إليها أكثر من فاصل آخر أو اثنين، لســـبب ما لا أدريـــه. لذلك فســـوف أترك كتابتي على ســـجيتها، لأني لم أعد أســـتطيع أن أخطط لها ومازلت لا أعرف بعد إذا ما كنا في فضاء قصة أو رواية ويبدو أني لا أعرف أساسًا كيف تصنع رواية سوى أنني ســـوف أحاول الاحتفاظ بحـــواس يقظة ونفس طويل إلى آخر المطاف.

* * *

الآن لا أستطيع أن أحصل عليك. انقطع عالمانا كل عن الآخر. وبطلت وسائل الاتصال. لم تعد أمامي الا أقدم وسيلة أعرفها كي أستحضرك: الكتابة. ربما تنجح أشواقي في النفاذ إلى عالمك وتجذبك إليَّ. فحتى إن لم تكن على سفر، يجيء وقت وتنقطع فيه السبل بيننا. يتحول الـ"سنك" فجأة إلى "دى سنك" يتراجع الـ"لبسنج" قليلًا، تنفصل الصورة عن الصوت، ثم تصمت الصور وتتباطأ "سلو موشن". ولا نعرف بعضنا البعض. ولا ما يحدث

لكل منا. نضيع في الجهل وتشتت الذكرى أو تحول التاريخ إلى مجرد كتابة.

أذهب وحدي مرة أو مرتين إلى حيث جلسنا آخر مرة. أتفقد المكان جيدًا علك تكون جالسًا مع امرأة أخرى فيطمئن قلبي أني نجحت في أن تستتب الأمور ويسود الأمن مرة أخرى. أو علك تجلس مع أصدقائك الصاخبين، فأنجح في استثارة كراهيتي لرجولتك لأنك في الأغلب تسخر بي أو لا تلقي بالا لعالمي الوحيد.

لا أجدك.

أتبع المحاولة بمحاولة أخرى. أجلس حوالى أربع ساعات أحدق في الهاتف. أمارس معه الحب. أدعوه أن يكون موصلًا جيدًا للحرارة فيبث إليَّ صوتك، ولو كان للمرة الأخيرة. أرفع السماعة. أصطنع الحديث إليك. أقبلك عبر الأثير كالمراهقين. أقول لك إنني منشغلة بأمور كثيرة هذه الأيام ولن أتمكن من مقابلتك "لكن خلينا نسمع صوتك". أضحك ضحكتين هستيريتين عندما يستوقفني صوت جرس الهاتف ينذر بانقطاع الحرارة لأن السماعة مرفوعة منذ زمن. أضعها. أتنهد. أفقد الأمل والثقة في كل شيء. أهيل أكوامًا من الوسادات فوق الجهاز المسكين. لو دقت مكالمتك الآن لن أسمعها ولن أمكنك من الاستمتاع بالأداء الجميل للنص الصوتي الذي تدربت عليه منذ وهلة. ثم أرفع الجميع. أنظر إلى الجهاز نظرة حقيرة مستفزة، أوليه

ظهري. لكني أعود مسرعة أطمئن أنه لم يغضب ومازال بخير. أرفع السماعة. أطمئن على الحرارة. على درجة الصوت، على الأسلاك. على الفيش. أغلق باب الحجرة خلفي وأقف أتلصص عليه من الخارج علّه يدق.

لا فائدة.

فلنعد إذن إلى الكتابة. المؤنس الوحيد في نهاية كل قميص وقبل بدايته. لعلها في النهاية تتحول إلى رواية، فقط لأنني ألج إليك عبر تفاصيلك المكتوبة. وعندما لا أجد سبيلًا إليك أكتبها جميعها حتى ألقاك على الأوراق وأعانقك. زاهدة في أن أستدعيك فعليًا في واقع الأمر. الأيام تلك التي تمر الآن من حولك لا يمكنها أن توجد إلا بالكتابة. لذلك يمكنني أن أدعوها "أيامًا نصية". أجوب فيها الأمكنة متأبطة هذا الدفتر الذي أكتبك عليه الآن. فإذا اشتد بي الشوق أخرجت القلم البيك الأسود واستكملتك. بحثًا عنك. أما إذا ظهرت ذات يوم نصي فأعدك أنه ستكون لك جائزة كبرى. سوف أجلسك إلى جانبي هذه المرة. وليس في مواجهتي. أحدثك همسًا. أخترق عينيك إلى أحشاء قلبك. أقترب من أنفاسك. آلف رائحتك وملمس سترتك ودفء ذراعك. وصمتك. ومخاوفك. وأطلعك على كل شيء كتلك الفواصل مثلًا التي أكتبها دون أن تعرف عنها شيئًا.

يبدو لي الآن أن الواقع يتفنن جيدًا في التآمر علينا. يعرف كيف

يدفع إلينا بهؤلاء في اللحظة المناسبة لنتشتت. ويعرف جيدًا كيف يقتنصك مني بالكامل، ولا يدع لي إلا الكتابة والخيال والشعور بالإثم لأني أتطفل على واقعك وأدخل في مناورات ساذجة مع هذا المارد الملقب بالواقع. ومع ذلك ينبغي هنا أن أدون شكري له لأنه في النهاية يمنحني قلمًا لأكتب خيالي.

وسوف أقنع - على الأقل تمثيليًا - بأنني التقيت بك بعض مرات حتى الآن، أو مرة واحدة، سوف يهون ذلك الأمر عليَّ كثيرًا، لا سيما عندما أتذكر في أشد لحظات الضعف طلبك بأن أغير نهاية القصة...

توفيت "مارجريت" هذا الأسبوع. هل علمت بذلك؟

توفيت دون أن نتمكن من لقائها. مات معها حلم كنا نود إنجازه في القمصان القليلة المتبقية. وكان يمكنه أن يمنحني فرصة أدبية رائعة في الوصف والتوثيق لامرأة لن تتكرر. لماذا اختارت أن تموت في هذه اللحظة؟ ألم تكن تعلم بحلمنا؟ وبكتابتي؟ بكيت أنا في ذلك اليوم. شعرت أنني وحيدة في مواجهة المارد الذي ربما ابتدعه خيالي. لأن المرأة التي علمتني الكتابة والحب كي أخرج من دائرة الإخفاق، قد رحلت وتركتني أنا وكتابتي، امرأتين وحيدتين، ربما تهبطان يومًا إليك داخل قميص واحد. رغم كل شيء. فنتقاسم ثلاثتنا استكمال حب مارجريت بوصاياها الثلاث: أن نفتح ذراعينا

للحياة وللعشق، أن نعرف قوتنا الداخلية وأنا - أنا العميق، أن نكتب حتى النهاية.

وها أنا أكتب، وأعرف أن قصة المفتتح تتكرر مع كل "قميص وردي..." آت، وتتنوع، وتتشكل كل مرة تشكيلًا مختلفًا صادرًا من أبجديات تلك القصة الأولى، ربما نصل مع ختام تلك الكتابة إلى صيغة مرضية من "القميص الوردي" تكون الأوراق السابقة عليها مراحل لتكونها أو لتطورها، ثم لا يبقى حينئذ إلا المهمة الأصعب: أن نرتمي كلنا في معترك الحياة، نواجهها، ونتواجه، ونستمر، دون كتابة، ودون رعاية، من مارجريت. ألم تقل هي أن كل ما تكتبه هو ذات القصة، تدور وتدور حولها، وتكتبها كل مرة من جديد في رواية أو مسرحية أو سيناريو (أو في الحياة؟) لتصبح هي ذات القصة الدائرية الملهمة. أو لتصبح هذه الرواية التي أحياها الآن بالكتابة هي رواية تعلمي الكتابة، والحب.

المدهش حقًا للآخرين هو أن اللسان الثرثار الذي أرسله إلينا الواقع في "قميص وردى لا يريد أن يكون فارغًا" قد طلب منك أن تحكي له عني عندما كنت على وشك الانصراف لأنقذ قطرات اللحظات المتساقطة من التبخر، فكان أن لم تجد شيئًا تقول له سوى اسمي وبعض الإيماءات القابلة لتأويلات عديدة. لم تكن لديك أية معلومات، ولم تشعر فيما قبل أنك بحاجة إليها. فكيف يحدث هذا

الـ"سنك" الإلهى دون أية مساعدات من الواقع؟ وهل نحن بالفعل أبناء أفلاطون ونصفاه المنثوران في الكون فحسب؟

فلأكتف بهذه الكتابة لهذا الفاصل، فمن الواضح أنك لن تظهر، ولم يعد من المجدي الدخول في تأملات فلسفية حول علاقة ربما تكون وهمية من الأصل. سوف أتوقف هنا. أطوي الدفتر. أضع القلم في الحقيبة. وأتأكد أنني لم أكن أبدًا "زاهدة في أن أستدعيك فعليًا" ففي واقع الأمر "الأيام تلك التي تمر الأن من حولك لا يمكنها أن توجد" إلا بك..!

❊ ❊ ❊

قميص وردي مثل كل شيء

بهذه البساطة تجئ الينا ونحن جالستان - أنا والكتابة - على مائدتنا. تعتذر أنك تأخرت كثيرًا عن الموعد الذي لم نعلنه أبدًا، وتسألني ألا أكرهك بسبب هذا التأخير. أطمئنك وأنا على حافة البكاء من المفاجأة الجميلة. تلك التي ستطيل من عمر كتابتي وتجعلها تنتشي. فأنت في القارب نفسه معي رغم كل شيء. وليس علينا الآن إلا أن نصارع الأمواج أو نروضها حتى نبحر في سعادة. وأولها أن نبطل تحايل الواقع علينا.

هكذا تعود الدمـــاء تجري في قلمي. وفي قلبي. لكني أستســلم ســريعًا للرغبة في الحصول على الأمان عن طريق تكرار السبل القديمة: أسرد أحداثًا تافهة ومشـــاعر لا أهمية لها. أفتعل تفاصيل تقيني لحظة غرقي في عينيك، وتجعلني أتحايل على توتري. أنظر إلى ركني المــكان، أتفادى الاقتراب من وجهــك الذي يواجهني. أضحك ضحكات هيستيرية غير ذات مبرر. أحاول استدعاء العالم كله فوق المائدة. بينما تزيح أنت كل تلك الحصون القديمة المستهلكة بحركة واحدة، تقول: "متى تنتهين من هذه الراكورات المزعجة؟" أخجل منك. وأستريح. فلم يعد من الممكن التحايل على الشوق. أو على الرغبة في عناق إلى الأبد..

أنت لا تزال محتفظًا بشـــعور آخر لحظة لنا سويًا. بوقع سؤالك الرائع عن اســـتعدادي لتغيير القصة. بشـــغفك باســـتثمار شهوتنا

الكتابية. وأنا قطعت شـوطًا طويلًا من تلك اللحظة حتى عشـرين سـنة قادمة. احتوتني مجريات شـعوري نحـوك وقررت لي كل شـيء. عن تغيير القصة وعن حبنا المأمول. وعن حياتنا سويًا. لم أعد أسـتطيع مثلًا أن أنظر لنا أو أن أستغلنا أدبيًا. ولم أعد أستطيع إلا أن أقول لك إن القصة قد غيرت نفسـها بنفسها وعلينا الانطلاق من هذا المتن الجديد. تسـعد فيضيء وجهك وتتهلل. تنادي النادل. تنظر في كوبي جيدًا. تشـير إلى مشروبي بإصبعك وتطلبه نفسه. وأظن أن هكذا يبدأ تاريخ المشـروب الواحد سوف نتقاسمه سواء أحضره أم لم يحضره.

شيء جميل أن تكون مرهقًا وشعيرات ذقنك الفتية نابتة. وصوتك ينهي أحاديث اليوم استعدادًا للخلود إلى النوم قريبًا. جميل أن ترتخي جفونك قليلًا وتبدو على يديك آثار العمل والمواصلات وأتربة الطريق وثرثرة الآخرين. ثم تتلقفني هكذا بموعد خيالي وتقدم إليَّ مادة جديدة للحلم بك. أفتح عيني جيدًا وأرسم صورتك في ذهني. ثم أغمضهما حتى ينتهي التحميض. لكني دومًا لا أصبر وقتًا كافيًا فلا ينتهى التحميض أبدًا، ولا أحصل على صورة ذهنية جيدة لك. كل ما يتبقى لديَّ منك تفاصيل حسية وتوقعات حول خيالك. في نسيج لا يصلح إلا أن يحمله الهواء فيما بيننا.

والآن ليس هناك بد من أن أقترح عليك الولوج إلى أسهل تفصيلة

كنا نود إنجازها: "كأن نرتدى قميصنا الوردي ونتلقى عليه ظلالًا ملونة لشاشة عملاقة تحتوينا فينفذ دفؤها إلى جلدنا".

أدعوك بعد الترحم على مارجريت إلى مشاهدة ميريل ستريب. امرأة أخرى عرفت طريقها إلى قوتها الداخلية. وأحبت الحياة. تندهش لأنك فكرت في هذا الاقتراح نفسه. أبتسم أنا لأنك إذا عرفت كمية الـ"سنك" الذي يحدث لنا كلما التقينا، ربما لن تصدق مفاجآت الحياة لنا.

ثم نصمت. لأن الصدفة التي جعلتني أبدأ بالاقتراح، وبالإفصاح، ربما لم تكن صدفة، وربما سيتعين عليَّ فيما بعد أن ألتقط توقعاتنا، وأفترشها وحدي. فهل يتحايل على الواقع مرة أخرى ويضع المبادرة على طرف لساني وحدي؟

أقطع الصمت القاطع بأن أعترف لك اعترافًا، أعرف أنه سيحلو لك. لقد حنثت بوعدي وكتبت. تغلب على شعوري ولم أجد معي إلا الكتاب لتنقذني. فهل ترى كيف أنا وحيدة؟ وماكرة؟

تسعد مجددًا، وتؤكد أنك لم ترد أبدًا أن أتوقف عن الكتابة. فأنت تحـــب كتابتي (مثلما تحبني؟!) ولا تخاف من تدخل الخيال الكتابي لإفساد ما نحياه، ولا تريدني أن أقمع في خيالي وفي كتابتي. ولكني مع ذلك أتدلل أو أتشـــكك في قوتي حيال مواجهة ما تقترحه. فأقول لك أنني ســـاعمل الا أســـتثمر تفاصيلك وأقوالك وإيماءاتك حتى لا

تختلــط الأمور، بينما أضع في بالي ذلك القول جيدًا لأنني ســوف أدونه هكذا، أى سوف أحنث به مع سبق الإصرار والترصد.

أطرق قليــلًا وأتخيل الكتابة التي ســوف يثمرها هــذا اللقاء. فتستدعيني من الخيال في اللحظة المناسبة كما تفعل دومًا. وأعرف هكــذا أن جميع ما كتبتـــه خارج هذه الروايـــة كان بمثابة "تدوين مؤقــت"، وأن الكتابـــة الحقيقية الحية قد آن آوانها. ســوف نطلق العنان إذن لنا، مثلما أطلقت الكتابة العنان لنفسها منذ بضع ورقات، وما سيكون، سيكون.

ألتقط المنديل الكلينكس الموضوع أمامي على المائدة متأهبة للكتابة الهيكلية التي سأدفع بها عليه، لأن الصدفة جعلته شاهدًا وحيدًا على ما حدث بعد أن انتقلت بقية الأشياء إلى مطبخ المطعم السويسرى الأنيق. وهنا يلتقطنا الواقع من جديد أو الذكرى أو "الراكور". يدخل اللسان الثرثار ذو الوجه الاسمر والثقافة الامريكية.. حتى في لحظة انطلاقي. وتدور أحداث مشابهة لما سبق، أقسم أنني لم أرد استدعاءها ابدًا، وتقتفي ذاكرتي التكرار من حولي. وتقتفي كل الدوائر التي مرت بها من قبل، إلى أن تسقط جميعها في دائرة جلستنا تلك. أنطق بكلمات كتبتها عن هذا الموقف عندما حدث للمرة الأولى، فيبدو الأمر كما لو كنت أتمتم بتعويذة ما تدفع بالأشياء إلى الحدوث، كما لو كنت نبية ما. وأحار كيف سأدون هذا الموقف للمرة الثانية، ربما

أقتطع عبارات من الكتابة الأولى وأعيدها بين علامات تنصيص، أو أذكر تعبيرًا مفتاحيًا أورد بعده نقاطًا عديدة وكلمة تختتم الفقرة المكرورة: (صدقت يا مارجريت!)

في ورطة التكرار تلك، التي سقطت فيها حياتي كلها، أجد نفسي رغمًا عني مدفوعة ليقين أني (إله التكرار) لأن كل ما أراه وأسمعه وأفعله قد حدث من قبل في واقع أو في حلم، وكلمات تفرض نفسها على طرف لساني فلا أندهش وأعطيها ما تريد: أنطق بها. وأتفرج على هذا كله، أحيانًا من وراء زجاج صلب يفصلني عن الأشياء ويوصلها اليَّ مثل سينما الرعب. ربما لذلك فذاكرتي بصرية. ولا أستطيع أن أتخيل إلا خيالًا بصريًا. فهل تصبح كتابتي هكذا كتابة سينمائية تحتل "الفوكاس" فيها ملامحك وإيماءاتك؟ وكلماتنا.. هل هي خيال بصري أيضًا؟

أضحك بدلا من أن أبكي. كي أوازن حزنك من انشطار لقائنا وكأن قدرًا خبيثًا يدفعنا إلى هذه النهاية الواحدة، مثل الفيلم الذي لا يصل أبدًا إلى الذروة. يبدأ يتطور قليلًا. ثم يقف عند ذات النقطة ويعود دومًا إلى البداية الأبدية نفسها.

أقرع بعنف على حافة المائدة. أوقف شريط الصوت. يتحرك من حولنا في فيلم صامت. أبله. بينما نتمتع أنت وأنا فقط بموسيقى تصويرية نسمعها من الداخل. تستمر التحركات. و"الراكورات".

يشير إليّ صاحبنا وأصبعه موجه نحوك ليلومك. بالطبع أنت لم تسرد له عني ما يكفي. لم تعطه القدر المنتظر من المعلومات في المرة الماضية. أضحك في يأس، فقد عرفت هذا الحديث من قبل هذه اللحظة، بل وكتبته وكلي أمل ألا يحدث.

تسألني "وهل جاءت أيضًا الفتاة" التي طرازها نادر في هذا الزمن ولا يتكرر كثيرًا. أبتسم لأنك عندما ذكرتها لك للمرة الأولى شعرت بالضبط بما كتبته أنا فيما بعد، رغم أنني لم أكن أتمنى أن تكون الحقيقة كذلك. وها أنت ذا تؤكد لي أن إله الحدس في هذه العلاقة الدائرية، ليس أنت في الأغلب. "لا لم تجئ".

ينحصر جواسـيس الواقع في مائدة تآمرية واسعة. يجدون أنه من المحــرج ألا يفعلوا. هكذا. يرمقوننا بنظرات قلقة من حين إلى آخــر. بينما تفضي إلى بآخر تعليق أدبي في هذا اللقاء: أنت تعاني من صدمتك في وصفي لك بأنك تعاني التخنيث. ربما تكون مستفزًا فـــي واقع الأمر لكنك لم تفصح بذلــك. وأنا لا أحتاج إلى إفصاحك بالأشياء حتى أدركها. أطمئنك أنك لست كذلك في خيالي البصري، لكن ضرورات "الكتابة المستحدثة" وكسر التابو يحثانني إلى إجراء مثل هذه الإشارة الأدبية، ولا تنسَ أنني على يقين من أننا نفقد جنسنا بالتدريــج. نصبح جعرانات في هذا الزمن الرديء حيث لا فراعنة يلتقطوننا أو يمجدون انغسالنا من الهوية، غير تلك المحافل الحافلة بنا:

المطاعم الأنيقة التي نرتمي فيها ليلًا بين ثقافات سويسرية وفرنسية وإيطالية وأمريكية بالأساس. تحفظ عيوننا الأحذية الهولندية المعلقة فـــي الأركان وأواني الطهى الدائرية علـــى الحوائط، جبال وثلوج وكلاب صيد، رعاة بقر وغابات ممطرة ونســـاء غجريات. ورغبة مزيفة في اصطناع لهجة غريبة في الحديث، في استعارة مفردات لغات أجنبية، في إثبات الجرأة والحداثة بإطلاق عينة عشوائية من الألفاظ البذيئة التي يتقنها الكبار فقط. كيف أفلحت هكذا - إذن - في انتشـــالي من الغرق في لحظة التكرار واليأس هذه، حين ظننت أن الكتابـــة يجب أن تتوقف عند "مائدة تآمرية واســـعة" وإلا فلأحمل فقرات مما سبق وألقي بها في هذه الصفحات البيضاء لأعبر بأمانة عن الأحداث. وها نحن نصل إلى جملة جديدة عندما تقول "وأكتب أنا ما تقول" إن المثقف المصرى المعاصر، أو لنقل الســـاعي إلى الثقافة، كي لا نثقلك بالرموز، عادةً ما ينادي بالتحرر وكسر التابو ثـــم يصطدم بالنتيجة لأنه في النهاية لا يجد تراثًا يمكنه من التعامل مع تلك النتيجة. أســـعد لأننا بدأنا ندخل في حوار حقيقى، ونســـقط الواقع وجواسيســـه ودائريته من وعينا. أجيبك بأن صدمتك مفتعلة ولا تتماشـــى معك، ولا داعِ لاستعارة مشـــكلات أنماط أخرى من الرجال لمجرد إثراء هذه الكتابة وجعلها بانوراما لوســـط المثقفين المعاصرين. أنت من سياق آخر..

***

يجيء النادل في "لونج شوت" مفاجئ. يختار أن ندفع الحساب في هذه اللحظة ونغادر المتآمرين بدلًا من أن نفر منهم بالتنظير الأدبي. تهتز الورقة بالأرقام المكتوبة عليها آليًا وبحروف انجليزية تختصر ما تناولناه. نضع النقود المطلوبة فوق الورقة فتهدأ. نبتسم لأن المجاز في مشروبينا وفي أدوات المائدة والطعام، تحول إلى ثلاثة حروف إلـــى جانبها رقمان، والنادل العجوز فـــي نهاية الفاتورة يرمز إليه بـــ12 % ومن بعده 5 % أخرى للحكومـــة. يحمل الورقة بغنيمتها مطمئنًا. تنقطع برحيلها علاقتنا بهذا المكان، بعد أن تم توثيقها على فاتورة في حجم 3 × 2.

ندفع الباب المروحة إلى الخارج. يودعنا المكان المكتظ "بكلوز أب" لأقدامنا وهى على عتبة الشارع العتيق. ثم يختفي المكان تمامًا بمحتوياته من الشاشة، كأنه ظل باللون الأسود من خلف ظهورنا في نسخة النيجاتيف. الآن نحن في جغرافيا جديدة لأن الزمن مختلف...

قرابة منتصف الليل يخف زحف السيارات عن كاهل المدينة وكذلك الأنفاس والروائح والأوزان. يبدو الشارع وكأنه يسترد شبابه ليلًا. يطلق رومانسيته القديمة وبعض خفته ليداعب المدينة المهمومة ويغازلها مثل عجوزين في السبعين مازالا يحتفظان بقدر من العشق. وكذلك نفعل نحن أيضًا. نتجاهل القوادين المتأهبين على النواصي،

البالوعات المكشوفة، الأسلاك الكهربائية العارية، الأطفال المشردين الذين يلعقون الكولة أو يستنشقون البنزين، ونرفع رأسينا عاليًا إلى السماء والنجوم، وأحيانًا إلى إعلانات النيون الخاصة بوسط المدينة. نحاول أن نشق لنا هوية وسط طراز المعمار الانجليزى ومنتجات تايوان وهونج كونج المسترخية حتى الصباح على الأرصفة، وسط مترو الأنفاق السويسرى، ومكاتب خطوط الطيران الدولية المتربصة بنا من كل ناحية تلوح بـ"الفرصة الأفضل". ربما هويتنا أننا اثنان جائلان يناطحان الواقع، يغازلانه أحيانًا حينما يقولان إنه يبدعهما أكثر جمالًا وعبقرية، أو يتطاولان عليه عندما يفصلهما كلًا عن الآخر، وفي النهاية يترسبان في جعبته مثلما يترسب أطفال الأرصفة في آخر الليل...

أنظر إلى بروفايلك الماضي في همة بينما وجهي كاميرا تتابعك عن كثب. هل أنت بالفعل أنت الذي يسير معي قرابة منتصف الليل في شارع سليمان باشا، أم أنك مخلوق خيالي نبت في كتابتي؟

أردد بعض الكلمات التقريرية للتأكد من أنك حي تسمع وتتكلم، أقول إن الجو باردٌ، إن الوقت متأخرٌ، فترد ردودًا رومانسية رائعة تجعلني أغرق أكثر في خيال الكتابة: نحن وحدنا ليلًا في الخارج في أواخر فصل الشتاء، نتأمل الهدوء، ننظر إلى السماء، نتجاهل الواقع، نستشعر ما يمكن أن يدور بداخل كل منا. ننتظر صدور

لحظة حرارة ما من جسدينا تصعق البرودة الفاصلة بيننا. نبتهج عندما يحتك ذراعانا، أو عندما ينفلت طرف السترة الأمريكية التي ترتديها ليلامس طرف سترتي الفرنسية، أشعر أن ملابسنا تتعانق في شقاوة، تفقد سياقها الأجنبي وتنتمي إلى لحظة حبنا المطلقة. فهل ينبغي أن نلتقي آخر الليل حتى نكون في أطراف الواقع، أو هامش المدينة؟ أم أنه قد تم تدريبنا جيدًا حتى نعشق الترسب في أتربة الأرصفة؟

هكذا يمر الوقت بين تساؤلاتي وتأملاتي، وانتشائنا العابر، ونجد أنفسنا فجاة في ميدان التحرير الذي يغسل نفسه هو الآخر من الواقع ويصبح دون جوان رائعًا في منتصف الليل. تتلكأ أقدامنا رغمًا عن إيقاعها التلقائي السريع، نشعر أنه من الواجب استغلال ساحة الرقص الدائرية هذه، والأنوار البرتقالية المتلألئة، من أجل نهاية وردية لنزهة غير متوقعة. تقفز من فوق كتفي امرأة ما، ومن ورائها رجل، يهرعان نحو الميدان وكأنما احتجزهما المرور في طيات الواقع، يستعدان للرقص، فتشير إليهما متهللًا. ويبدو لي أنهما يشبهان المرأة والرجل اللذين جاورانا في زمن قديم، غير أن إيقاع حركاتهما قد تغير بشكل ملحوظ. سوف نرقص إذن فالسًا جميلًا في الممرات التحريرية التي منحها لنا مترو الأنفاق، سوف نصل في "البيرويت" القادم إلى حيث يقودنا الميدان في اتجاه إجباري، إلى نهاية شارع الانتخانة ومطلع كوبرى 6 أكتوبر. نتوقف. لأن الساعة

المنصوبة للإعلان عن المراوح اليابانية قد أعلنت تجاوز منتصف الليل، وسندريلا التي ليست شقراء ولا يافعة، ينبغي أن ترحل.

تتولى المهمة المقدســة في العثور على سيارة أجرة تقلني بعيدًا عنــك. تخفت ملامحك في برهة واحدة وأنت تــؤدي دورًا جديرًا بالشاب المصري الرقيق الذي يؤمن ركوب الفتاة التي معه في وسيلة مواصلات آمنة. تســألني أى طراز أفضل في سيارة الأجرة التي سوف "ألقى بنفســي" فيها الآن، أجيبك "لا يهم"، وأقضي الثوانى المتبقية في إدراك عينيك والنشوة تخفت فيهما، والحاجبان يتسيدان الموقف. أطلق عيني في اتجاه مضاد للسيارات التي تغزو موقعنا فجأة من جميع المصانع العالمية. أتململ عندما تقترح على هذه السيارة أو تلك، أتدلل. وأشــتبث بشــدة بحافة الرصيف التي تحملني الآن. أستطيع أن أستشف أنك أصبحت تمقت سيارات الأجرة، لكنك تأخذ على عاتقك أن تتحامل على نفســك وتضحى بي إليها. تزفر زفرة طويلة. تقول "ما رأيك في هذه السيارة؟" أرد بأننى موافقة، عندها تطلق اســم الحى الذي أسكنه، يتوقف السائق، ويتلقاني سعيدًا بينما أقذف بحذائي وحقيبتي وشــعري في قاع الأريكة الخلفية للسيارة، والجسد الذي بين هؤلاء يظل إلى جوارك على حافة الرصيف ملتصقًا بطرف بنطلونك، متشبثًا باستكمال الفالس التحريرى. لا ألتفت إلى صورتك خلال زجاج السيارة الخلفى مثلًا ولا ألمح أنك تلوح لي، أو تخطو بهمة، أو تتقافز، لأن أنفاسي تتثاقل، وعقلى يتجمد. يرفع

السائق يده بالسـيجارة المارلبورو الحمراء، ويبدي دهشة وحيرة ســاذجتين، يسألني إذا ما كنت أنا التي ناديته أم رجل ما، يقول إنه سمع صوت رجل وامرأة في مزيج واحد غير مألوف، يضحك من هذا الحدث، فأؤكد له بصوت وردي "نطقنا ســويًا بالكلمة في ذات اللحظة". ونصمت. ثم ينفرد هواء النيل من أسفل الكوبري بمداعبتي، واستيعاب حزني داخل الذكريات التي تولدت اليوم. أستعيد سليمان باشا، وميدان التحرير، والانتكخانة، والأرصفة، والمنعطفات، وأتخيل أن خطواتك ورائحتك أصبحت تسكن هناك، وتتعلق بلحظات الحب التي نحتناها ســويًا في تلك الجغرافيا. عندما أشتاق إليك في الأيام القادمة سوف أخطو في هذه الأماكن وأتلقي نفحات منك ومني معًا. والآن أتقاسم هذا الحديث السري مع النيل وهوائه، وأبوح بالفالس، وبالانتصار على مائدة الواقع، وعلى دائرة التكرار.

***

هل هكذا يبدأ إذن عشقي لوسط المدينة؟ ونصنع لنا تاريخًا خاصًا بنا؟ ربما الأحداث تلك التي تبدعها سوف تمنع (راكورات) حياتي من الاستمرار، وتطلقني إلى حيث النهر والهواء والشمس...

***

أين ذهبت الآن؟...

فاصل ثالث

"أحبك": هي الكلمة التي اخترت أن أبدأ بها هذا الفاصل. ربما لأنها الكلمة التي أحوم حولها منذ البداية مثلما أحوم حول شخصيتك، وأقاوم النطق باسمك وسنك وهويتك. لكن الواضح أني لن أفلح في ذلك من الآن فصاعدًا، وسوف يزداد نهمي بتفاصيلك أكثر فأكثر، حتى إنني ربما أذكر رقم هاتفك، وأكرس هذه الصفحات لسيرتنا الوليدة، فننتقل من جنس القصة إلى الرواية إلى السيرة الذاتية. والسؤال: هل من المشروع أن أعريك أكثر، وإلى أين يقودنا ذلك؟ وكيف سوف يتلقفنا المجتمع فيما بعد؟ كيف أنهي هذه "التجربة" بأقل خسائر فلا يزدريني أحد ولا تزهدني الكتابة؟

***

بعد شهر على الأكثر سوف أعطيك القميص كله لتقرأه، سوف تعلق قائلًا في النهاية أني أسيىء استخدام الأدب كي أنقذ علاقتنا من الدوائر التقليدية، أفخمها، أكون لها تاريخًا وشاعرية، وأدعو عديدًا من القراء حتى يؤازرونا لإنجاحها، ولعدم تخييب توقعاتهم لأننا سوف نصبح هكذا موديلًا جيدًا للحب في هذا الزمن. سوف أستر وقتها تعجبي من قلقك على القراء وعلى مسئوليتنا الاجتماعية، وسوف أنهي هذا الموضوع خارج نطاق الأمانة الأدبية، بأن أقول

لك إن العشق ليس لنا وحدنا، بل للكتابة أيضًا، وليس لنا أن نحرمها متعة تدفق الدماء في عروقها. ثم، ألم يخطر ببالك أبدًا أن الكتابة، في نهاية الأمر، ربما تكون هي التي تسيء استخدامنا؟!

مضى يومان إلى الآن دون أن أحصل على أى قسط من النوم. ينبغى أن ألاحق الأحداث بالكتابة، وأحيانًا ينبغي أن أســـابقها. لكن أغلب الظن أنني سأنام طويلًا بعد انتهاء هذا الفاصل، وسيكون رأسى مستريحًا بقدر كبير من الهواجس والمكبوتات التي تحدق عادة بالمرأة التي تحب، لأن الكتابة قد ساعدت في إقصائى عن ذلك وأفسحت لي مساحة جيدة للتنفس والتغلب على التوتر المرتبط بالبدايات. وقريبًا أتقن مواقيت الكتابة واللقاء، بل ربما أنجح في القيام بما يلهمك أنت أيضًا فنيًا فتكون لحظاتنا متوازنة الخيال.

أنت تقول إن لدى بنية محكمة في القص، أو خطة خاصة جدًا بي تؤدى إلى الأثر المرجو، دون أن تدعي أنك ناقدٌ أدبى مثلًا، وبينما أكتب إليك الآن فإنني أغمض عينًا وأفتح الأخرى التي أرى بها فقط كما يجب، لأن نظارتي قد كسرت عدستها اليمني، ولم أصلحها لأنني فتنت بأن أعيش لحظات مشابهة لبطلة فيلمك القادم عندما فقدت عدستها اللاصقة اليمني، وراحت تبحث عنها واضعة الأخرى، ومتأملة غرفة نومها للمرة الأولى بنصف رؤية ونصف خيال. فهل يتفق هذا مع البنية المحكمة التي تتحدث عنها؟

البنية المحكمة هي بنية الواقع الذي أستميت لتغييره، أكافح كي أخلق لنا هامشًا خارج التشابهات والتكرار، بينما جميع كلمات الحب أصبحت محفوظة عن ظهر قلب، وأصبحنا كلنا نتتبع خطة واحدة محكمة للحصول على علاقة حب ملائمة لهذا العصر. اخترنا أنت وأنا في حقل الألغام هذا، ألا نتحدث عن الأبراج الفلكية، أو نستمع لأغنيات الحب، ألا نتزين وندعي الغنى، ألا أجعل من نفسي عروسة حلاوة مشابهة لباربي، ألا تصطنع دور الفارس المغوار أو الدون جوان، ألا نلوي ذراع الحقائق، ألا نستخدمنا لنغيبنا عن العالم، ثم ننتظر أن تحدث معجزة روحية مثل الـ"سنك" العظيم في لقاءاتنا، أو نطقنا بذات الكلمة أو بذات الإيماءة أو بذات الرغبة في لحظة واحدة، حيث تندهش دومًا، وأستريح إلى رسوخ يقيني عنا، ويبدو أن المعجزة الأكبر في طريقها إلى الحدوث، عندما لا أجد حاجة إلى تلك الفواصل الوحيدة وحدتي دونك، وأنخرط معك في الحياة وفي الرواية، وفي عملك وإبداعك ومشاويرك وأصدقائك ونجاحاتك وإخفاقاتك. نصير متلازمين. نصير إلى تواصل أبدى. حتى وإن كنت على سفر.

***

هل تعتقد أن الدماء التي أخذت الآن تجرى هنا سوف تقول شيئًا عندما تتحول إلى حروف كمبيوترية مطبوعة؟ وهل تنفصل آنذاك

كتاباتي عنا وتحيا على قارعة الطريق فيحدث أن أقابلها ذات مرة صدفة فتتجاهلني أو تتدلل عليَّ؟ أين سنكون نحن وقتها؟

* * *

هل سوف تبزغ في الوقت المناسب للقاء ميريل ستريب؟

فيلم "روائي" وردي

ليس من قبيل المصادفة ألا تخيب ظني وتظهر في سينما رمسيس هيلتون يوم الجمعة 29 مارس سنة 1996. في حفلة الساعة 3,30، حيث الهدوء مازال يعم المدينة المسترخية بعد مجهود مكثف في يوم الخميس الليلي، نلتقي. أنت أيضًا مسترخ. كالمدينة. صحوت من ساعة واحدة فقط. لم تتناول أى إفطار، سوى كوب شاى مركز بالحليب. تجيء نحوي كأنك تمر من دورة المياه بمنزلك عائدًا إلى غرفة النوم بعد غسيل الوجه. اليوم أول أيام الصيف المصري. أنت ترتدي تي شيرت رماديًا من وكالة البلح، وصديريًا مطرزًا كالشائع هذه الأيام، على جينز بالطبع. وفي يدك اليسرى، يتدلى السويتر الذي تصحبه معك في جميع رحلاتك. وأنا ولأول مرة أرتدى بنطلونًا ضيقًا. أضع التي شيرت النبيتي داخل البنطلون، وفوقه صديري بني. أنا أيضًا. نتفق في الصديريات وفي البنطلونات. وغسيل الوجه مباشرة قبل النزول للمرة الأخيرة. ثم نتدافع بعشرين جنيهًا ثمن التذكرتين، في لحظة واحدة. تندهش امرأة شباك التذاكر، وترتبك. تتلعثم في أسئلة غير منطقية. وضحك ساذج. أبتعد وأترك لك مهمة تهدئتها. وتنجح بعد بعض عناء...

نتجاوز المدخل المكهرب، وفحص التذكرتين، وحقيبي، وتفتيشك

تفتيشًا ذاتيًا ممتعًا لرجل الأمن. أتنهد للإرهاب الذي يمارسه علينا رجال التأمين ضد الإرهاب. هكذا يلمسك هذا المفتش قبل أن تتسلل إليك يدي في القاعة المخصصة من أجلنا ومع ذلك مازلت مسترخيًا.

نجلس في الموقع الذي اخترته على شاشة الكمبيوتر الجهنمية. تصطدم عيناك مباشرة بعمود أسمنتى لا يتكرر إلا في تلك القاعة رقم 2 فأقلق من بداية عبث الواقع بنا. أتساءل إذا ما كان يمكننا الإسراع بمفاداة المد الواقعى المكرر بتغيير التذكرتين، أو بشراء أخريين. لكنك تتجاوز الأمر بثقة وتطلق تعليقًا مناسبًا عن راحة العين في التلقي البصري من الجانب الأيسر. تطمئنني أن هذا المنظور سوف يلاشي العمود. وما أغبى رجال الأعمال السينمائيين ومقاوليهم. أم أن هذه ضريبة مشاهدة سينما في الدور السابع من ملحق تجاري مترامي الأطراف؟

الحل إذن أننا سوف ننزلق إلى المقعدين الخاليين في أقصى يمين هذا الصف، حتى يختفى العمود. بل سوف أضعك في الركن حتى تنال أفضل رؤية لميريل ستريب، لأنك سوف تكون بالضبط محل وجه كلينت استوود في أغلب المشاهد، أى أنك سوف تنال البطولة المطلقة أمامها. تستريح.

تظلم القاعة فجأة.

* * *

"تريلر" سريع لفيلم قادم لويتنى هيوستون لابد أن نشاهده حتى نغرق في الغرام بوجهها وجسدها وغنائها. ثم "تريلير" آخر لفيلم جيمس بوند العاصف الذي يغوى النساء ويفتك بالرجال، ويقلب الدنيا رأسًا على عقب، وهو بارد القلب. تشيد بمونتاج الـ"تريلر" وبقدرته الفعلية على اجتذاب جمهور حفلة صباحية. ويبدأ "جسور مقاطعة ماديسون" دون أن نلحظه. يتسلل هكذا من الصور الفوتغرافية التي شاهدناها له، حتى يصير جزءًا من جلستنا. نجتمع أنت وأنا وميريل وكلينت، ونترك أنفسنا لمقاعد وثيرة تستوعب جيدًا لهفتنا عليهما أو شوقنا للنهاية السعيدة. تلقي عليَّ تساؤلات جديرة بسينمائي محنك، فأفشل على الفور في إعطائك ردودًا جديرة بامرأة تحب سيمائيًا محنكًا. أخجل. يسقط خجلي على وسادة إعجابى بثقافتك، حتى وأنت مستيقظ لتوك من نوم ثقيل مازالت آثاره تداعب ملامح وجهك، وتغرى الفيلم القادم بالمرور من بوابة الأحلام. ميريل تصنع لأول مرة تسريحة الشعر التي اخترتها لنفسي مؤخرًا، تسدل شعرًا طويلًا ناعمًا وراء ظهرها كأنما على عمر طويل مضى، وتؤدي الحيل نفسها لتنجح في دور المرأة المهزومة الشاردة. "عندما تقرر المرأة أن تتزوج فهي تنهي حياتها، لكنها بطريقة ما تبدأ حياة أخرى مليئة بالتفاصيل". أدير الغسالة جيدًا يوميًا في برنامج يستغرق قرابة الساعتين، أنشر الغسيل الوفير، أرتب ملابس الأمس، أستعد لملابس الغد، أنظف السجاجيد بالمكنسة السويدية، وبالفرشاة والمعطر إذا لزم الأمر، أتأكد

من أكوام الأطباق في حوض المطبخ ولا أقوى على الانتهاء منها لأنني غالبًا أكون قد وصلت إلى الهدف المنشود من "تفاصيل" هذا المساء. فهل هذا ما تقصدينه يا ميريل؟ تتطوع لإنقاذى هذه المرة بالإفصاح عن استيائك الشديد من الأسلوب المتخلف الذي يضع به أنيس عبيد الترجمة العربية على الأفلام باستخدام الشمع المنصهر. تقول "إذا فسد جزء منه في هذه العملية فهو يقطعه دون اكتراث". لهذا إذن تسقط لقطات من المشاهد وكلمات من الحوار، وتدعمها الخربشات السوداء في الصورة هنا وهناك حتى لا نفقد الإحساس بأننا في النهاية نستحق نسخة أفضل من "جسور ماديسون". شكرًا لك. فقد أدركت متأخرًا العدد الهائل للنسخ الفيلمية التي كنت أستحق أفضل منها. الآن أقرر ألا أغرق في فخ المصادفات القدرية بيني وبين ميريل، فما هي العلاقة الممكنة بين امرأة في الخامسة والعشرين تقطن شارع جول جمال شقة 7 في عام 1996، وبين امرأة تحيا في عقد الخمسينيات في إحدى المقاطعات المنزوية في أمريكا؟ لا شيء في الأغلب سوى القرطين النحاسيين اللذين ترتديانهما عند لقاء الحبيب.

يلتقى ذراعانا رغمًا عنا. أصطدم بالشوق الهائل الذي يصدر منك. أتردد. أميل إلى الجانب الآخر - الآمن - من المقعد. أتململ قليلًا. أسند ذراعي على المقعد الأمامى. أو أضعهما على ركبتي. أرتب بعض خصلات شعرى المرتب. أحك أنفى. أعدل الخاتم في

إصبعى. ساق يمنى على ساق يسرى. ثم يسرى على يمنى. ثم تتلقفني أخيرًا في طية يد: (أين كنت منذ زمن؟!).

"كلما نظرت في عدسة كاميرتى لا أرى إلا صورتك. عندما أكتب أجدني أكتب إليك فقط. يبدو لي أن طوال السنوات الأربع التي مرت لم نفعل شيئًا سوى السير أحدنا نحو الآخر" يبدو لي ذلك أيضًا. لذلك فأنا أسحب يدي من يدك في حذر وأسرع إلى حقيبتي المتواضعة أنقب داخلها عن ورقة وقلم لأدون تلك العبارة تمهيدًا لنقلها هنا. أم أن هذه كانت مجرد حيلة أخرى للخنوع إلى التردد والهروب من الشوق لأننا جميعًا نعرف أنني أحفظ كلمات ميريل وكلينت المأثورة عن ظهر قلب (بدليل أنني لا أستخدم تلك الورقة ذات الخط الرديء الآن).

هذه المرة أنا التي أتسلل إلى يدك دون مقاومة. تطمئنني أنك ذات يوم سوف تنظر في عدسة كاميرتك السينمائية، ولن تجد إلا صورتي، وربما كان ذلك في حد ذاته موضوعًا جيدًا لأحد أعمالك القادمة، بينما لا أزال أكتب كل يوم مندفعة بحروفي نحوك. وبك. لا أزال أقدم لك الشاى المثلج في ظهيرة أيام حامية وسط المراعي الخضراء الشاسعة بمقاطعة وسط المدينة أو الهرم أو جول جمال. إغراء أخير حتى تمكث دقائق أخرى. (أو أقدم لك بضع ورقات مما كتبت؟)

لا تندهش إذن عندما تدرك على الشاشة كيف أن عمري كله يسقط في يدك الآن. في ظلام القاعة. نشرد شيئًا في الحديث - ميريل وأنا - تزوغ عيوننا من انكسار عميق تصطدم روحانا به كلما اقتربنا من أنفاسك. نتوقف فجأة عن الحديث عندما لا نجد بدًا من الاعتراف بأنه لم يعد هناك طائل من التخفى أو افتعال الرزانة. ونظرة عميقة بعمق تاريخ الشرود والهزيمة تلقي بنفسها على صدرك. فتفتح أزرار قميصك حتى نهايتها وتتركها تذوب كما تشاء بين شعيرات صدرك. وتذوب هي أيضًا في عناق حالم مع الحبيب في لقطة معتمة في الفراش لا تنيرها إلا شموع كانت موجودة منذ البداية لهذا الغرض. تضغط على يدى بقوة. تشتهيني وتتملكني. تنقلنى إلى عالم آخر بلا "تفاصيل". إلا منك. تصنع لحظة فريدة من الحب. نتماهى فيها. ثم نولد من جديد. ثم نعشق الحياة أكثر. ونبدع "جسورًا" خاصة بنا في فيلم جميل من إخراجك أنت. ربما أيضا بكاميرا كانت موجودة منذ البداية لهذا الغرض.

أتعجب لشـــيء من التشابه بين عناق يدينا الآن في قاعة السينما وبين موقف بطلي فيلمك الأخير. أتمنى ألا تتشـــابه النهايات، وألا يصبح اليوم مجرد يوم جمعة آخر. وأعرف أن برأسك يدور الشيء نفســـه. ربما لذلك توقفت عن محاولة كسر الإبهام بإلقاء ملحوظات عن نسخة الفيلم أو عن إمكانات التصوير التي لم يفطن إليها كلينت.

وأرجو أن تذكرني بأن نســأله إذا ما قابلناه لماذا لم يرنا ميريل في لقطة "كلوز أب" لوجهها خلال عدســة الكاميرا الفوتوغرافية التي كان يتحدث عنها في البداية؟ أتنهد مع قرينتي، أؤكد لها أننا سنتلافى هذا الخطأ في الفيلم القادم عندما أؤدى دورًا مشـــابهًا لها. فهل تفتح عيني على عالم السينما المثير، وتنقلني إلى خياله، مثلما ينقلها هو بممارسة الحب إلى سواحل الهند وغابات أفريقيا؟

هذه هي المرة الأولى التي نذهب فيها سويًا إلى السينما. اختيار موفق لفيلم أعلم أننا لن ننساه أبدًا. ونية مبيتة منى لمشاهدة ميريل ستريب لسبب ماكر هو تشابه الملامح الصارخ بيننا، والذى ربما يشجعك على أن تجعلني ممثلة فيلمك القادم. إذا استطعت أن تتفادى تصويري من البروفيل الأيمن والأيسر كما فعل هو معها. ثم أخذا يرقصان فالسًا جميلًا كالذى تخيلناه، بينما لون ثوبها الأحمر القانى ينطبع على وجهك. يجعلني أود أن أرتديه. أن أرقص بداخله. وبما أن ذلك يستحيل حاليًا، فإننى أكثف شعور البرودة الذي تسلل إلى اطرافى من جهاز تكييف القاعة الفعال، حتى يجوز لي بكبرياء أن اخذ بالحل الوحيد المتاح، وهو أن أرتدى السويتر الذي كان يتدلى من يدك وقت جئت. أتدثر به جيدًا وأترك مسامي لرائحتك ولذكريات السفر والترحال العالقة به. اكتشف بي قدرة على الاستشعار لم أكن لأتوقعها. وأطراف أصابع يدي تلامس في نهم أطراف أصابعك. تقتفيها حتى الرسغ. توقظ شعيرات جديدة تتعرف إليها للتو. وتعود

المسار نفسه: الشعيرات. القبضة. الاصابع. الأظافر. الأطراف. نرتعش. تتعلق أنفاسنا بالرغبة المحلقة. نسكِنها في نقطة هواء آمنة. ثم نتنفس الصعداء. ونستريح إلى تطابق جرعات رغبتنا، وإلى اتفاقنا على الحل. ثم أبتسم للمرة الأخيرة لأن تلك اللقطة حدثت وأنا مرتدية ملابسك، وطرف السويتر الخاص بك يلامس جسدك وأنا اكتشفه لأول مرة. هل أكتب إذن أن القميص الوردي سيصبح سويتر بيج أرتديه أنا، وتنقلب الرواية؟!

أعطته هي الدلاية الفضية المنقوش عليها اسمها. التي أهدتها جدتها إليها في عيد ميلادها الثامن. لأنها تعرف أنه قريبًا يرحل ولن يعود. وابتعت أنا لنفسي مفتاحًا ذهبيًا للحياه أضعه على صدرى عندما تغيب. وأتمنى ألا ترحل يومًا وتتركني وحدي معه. ثم باعدت بين أصابعها النحيلة لتتركه يتسرب بعيدًا. من أجل الأطفال وحياة "التفاصيل". وكي الملابس والطهى. وتقليم النباتات. التنظيف. الترتيب. وعدم إعداد الشاى المثلج. وخلع القرطين النحاسيين. والتوقف عن فتح أزرار الثوب كلها مواجهة الهواء. وعناق الكون. لم أبك. ولم ينطلق خيالي بحثًا عن تشابهات أدبية قدرية لأنك قبضت على يدي جيدًا. حميتني وأنا داخل قميصك. وعندما انتهت الجسور بيننا وبينهما وفر الناس من أسر القاعة المظلمة دون أن يشاهدوا التيترات على لقطات "شاريو" و"كرين" بانورامية هائلة لمقاطعة ماديسون بأكملها، نهضنا نحن. استمتعنا بالتصاق ذراعينا وبإنارة وجهينا. افتقدتك رغم كل

مـــا حدث. ورغم "الروائي" الوردي الجميل الذي أخرجناه معًا. لا تقلق إذن عندما أخلع السويتر وأعيده إليك فما من مجاز وراء ذلك. وأشياؤك التي أصبحت الآن عالقة بي لن ينزعها عني شيء. وفي القريب أرتديك من جديد. لتحرص على اصطحابه إذن في المرات القادمة. وساحرص أنا على تهذيب أظافري حتى لا يفلت مني إحساس الرغبة على الأطراف والرعشـــة عند الانسحاب. وسأحضر نفسي جيدًا لأكون جديرة بحب ســـينمائي ماهر مثلك. يعلمني الرغبة من جديد. وتشبه أطراف أصابعه أطراف أصابعي...

* * *

قميص أسود طويل

أدرك الآن أنني فقدت شيئًا كبيرًا كان يجعل مني تلك الفتاة التي ينادونها "نورا" فتستجيب للنداء جيدًا لأنها تعرف أن ذلك الاسم عامر بها وهى عامرة به. كان قلبها يقفز ويتراقص كالكلب الصغير المدلل عندما تسمع ذلك الاسم. تتحمس وتستعد لإنتاج لحظات جديدة. كانت النون رمزًا للرقة، والراء للمرح والإقبال على الحياة. ثم لم أعد "نورًا"، ولم أعد أشعر أن هناك كلمة على أن أتهيأ للبهجة بها عندما يطلقونها نحوي. صرت "نورا أمين"، شيئًا آخر غير مشتق من النداء الأول. تكوين كتابي أقرؤه على صفحات مطبوعة. أحيانًا أرضى لأنهم قد استحدثوا لي إشارة يحددونني بها عندما يتحدثون عني فلا يحدث خلط. لكنني دومًا أسقط على أسفي لفقدان اسمي. أتذكر كيف كنت عندما كنت "نورا". وأتحسر. أدرك أنني أصبحت كيانًا بلا اسم.

عندما تم طلاقي في الرابعة والعشرين من عمرى بعد زواج لم يدم أكثر من ثمانية شهور، سقطت أول حروف ذلك الاسم في دفتر مأذون حى أدخله للمرة الأولى. كتبت "نورا عبد المتعال أمين فهمي" بينما تلك النون الافتتاحية تشحب، ومعها ذلك الشعور بذاتي الحرة الجامحة. بدأ السقوط. أظهرت للجميع القوة والسعادة. استخدمت بعضًا من تقنيات التمثيل الذي مارسته جيدًا. واستكملت المطلوب. أنهيت فترة الحمل في همة وعمل دؤوب. ولدت "جميلة" في شجاعة،

وبدأت رحلة تربيتها وحدى. وكل يوم يتساقط منى شيء من هذا الاسم. حتى أصبحت مثل ورقة الشجر الخريفية على الأرض. لم أعد أهوى أو أريد أو أستمتع. اندثرت فجأة أحاسيسي بالشباب والفرح والانطلاق. صرت "الأرملة الطروب". أو "امرأة مفترضة". لا أنتظر شيئًا لأنني لا آمل شيئًا. نجحت في أن أجعل أسناني تتساقط قبل جدتي. في أن أدخل المشيب إلى شعري في وقت قياسي. في أن تتهاوى قدرتي البصرية إلى مستوى يرثي له. استرحت قليلًا. لأن الشكل الخارجي بدأ يلائم هذا الكيان العجوز الذي بلا اسم.

شيء جميل أن يمنحك الله فرصة الطلاق هذه فيتوج علاقته بك ولا يدع أي مجال للشك في المصير الذي كتبه لك. على الأقل حتى لا ينتابك هواجس عن غد مأمول أو انقلاب فجائي يغير حياتك. هكذا أنهى الطلاق ليس علاقة زواجي، وإنما أملي الأخير في الاحتفاظ برغبتي في الحياة ونشوتي بها.

وبدأت أكتب، حدادًا على الذي فقدت. على حروف اسمى التي اندثرت، وتم إغلاق دفتر المأذون عليها.

لم أعد حقًا أعبًا بشيء. غير صحة البنت. لم أعد أريد شيئا. دونت "ضمائر الموت السري". ورحت. وقال عني أخو صديقتي المصور الفوتوغرافي المحترف أن "حزنًا عميقًا يسكنني". لذلك فأنا أندفع

في كتابة هذا "الروائي" الوردي الطويل بجميع الرغبة التي كانت لدي في أن أكون، وأحيا، وأحتفظ باسمي. أن أعشق وأتحقق وأقوى على كل شيء. أحبك في هذه الكتابة ولا أستطيع أن أعانقك خارجها. تتكاتف عليَّ التجارب التي شقت في صدري تجويفًا أنبوبيًا. أحبك على هذه الأوراق لأنني هشة. لم أعد أستطيع أن أستمتع بالرجل الذي أريده ولا برغبتي نحوه. تكومت تحت ذكريات الفقد ونجح المجتمع بتفوق في ترويضي.

أحبك وأخشى أن ألامس ملامحك. لأنني الآن أحمل وصمة أخرى بأنني امرأة مطلقة. أخشى أن الاقى المصير المحتوم وأكون المرأة المتاحة دون مقابل، دون حب، دون ندم. علاقة جنسية أخرى عابرة. وترحل. وأتكوم بلا كتابة تمامًا هذه المرة. هل تعرفني حقًا؟ هل تحبني؟ هل أنا في يقينك أم في هواجسك؟ أنا أعرف أني أصحو في هلاوس وأذهب إلى النوم في وساوس. لا أستطيع أن أستمتع بلحظاتنا معًا. أكتبها. وأناضل حتى أعيد الدماء إلى عروقى بالوسيلة الوحيدة التي لم تتلوث بعد. أقدسنا بالكتابة. وأطلق الرغبة واللذة التي أتوجس منها في الواقع. وأحرمها على نفسي، وأنا أموت شوقًا إليها. أدور في ذات الدوائر كل يوم. كيف تراني؟ كيف سوف تراني؟ هل حقًا تنتهي مع إغلاق صفحات الرواية؟ هل أنكسر وأنسحب الآن قبل مزيد من الخسائر؟ أحبك

ولا أعرف كيف أستقبلك حينما تقع عليك عيناى. أنا واقعة في أسر الذهول من أنني أستطيع أن أحب رغم الإفساد المتعمد الذي وقع عليَّ. أنا أدرك نفسي للمرة الأولى. وأدرك الحب. أحلم بك. أشتهيك. أتخيل لقاء ورديًا رائعًا. ثم أنكسر وأخاف. لا أعرف موقعي. لا أعرف ماذا سيلم بك إذا أصبحت بالفعل عشيقي. أحيانًا أسقط حتى النهاية في فخ المجتمع والتقاليد. لا أجد لنفسي كيانًا ولا وجهًا. أصبح مهزوزة وأسير وفق التعليمات جيدًا. يضيع إحساسي بالوجود وأتحول شيئًا آليًا.

وأحيانًـــا أتجاوز التاريخ الذي صنع بـــي والمصادفات القدرية المقصـــودة لإنهائى إلى مصير معلوم. أتجـــاوز التقاليد والجدران الصلبة، والخـــوف من أمي، والخوف عليها، واحتقار الرجال لي، واشمئزاز النساء، والصورة التي ينبغي أن أكون عليها، والأم التي ينبغى أن أكونها، والكاتبة التي عليّ أن أوقرها. أقوى وأتماســـك. أنتزع ذاتي من الجب العميق. وأستعيد اسمي. أتطابق مع رغباتي وأحلامي. أجمح وأفتت المفروضات والهلاوس والانزواء الأنثوي والذعر من اختراق الحياة وتحطيم المحرمات. أرفع رأســـي عاليًا. أطلق جســـدي في الهواء. أحرر عقلي من أسر الآخرين. من أسر ألمي وخوفي وضعفي. أحبك كما أريد وأنتشي بك. وأحقق ذاتًا صلبة مطلقة. ولقاءً راسخًا. وربما أكون في طريقي إلى هذا الآن بالكتابة.

الوسيلة الوحيدة التي تنقذني دومًا وتحتضنني في حنو وتسامح.

أنا أكتب حتى أتماسك. أكون قصة حبي في هذه الرواية، وأحاول أن أنقذها من وساوسي وإخفاقاتي. أحاول أن أعالج ترددي في الواقع خلال هذه السطور. فأفعل ما أرنو إليه المرة القادمة. ربما هذه رواية انفتاحي على العالم والحياة في النهاية. فأخلع القميص الأسود الطويل وأتحرر. أعانق "نورا" وأحلق في الكون الواسع ونزأر سويًا أنت وأنا، بلا خطيئة، بلا وهم...

***

لكن لماذا هذا "الفلاش باك" الطويل المفاجيء والصادم، بعد "روائي" وردي طويل؟ لأن القميص الأسود الطويل هو الذي واجهني عندما خرجت من قاعة السينما إلى الشارع. بزغ فجأة وجثم على صدري طاغيًا على جميع اللقطات التي صنعناها معًا. هوى بي إلى مكان سحيق وقضى عليك. حاولت أن أصرخ. أن أناديك. لكني فقدت صوتي. حاولت أن أرتمي مرة أخرى داخل سترتك لكني شللت تحت وطأة هذا القميص. وكان لابد أن أكتبه هو أيضًا كي لا أكون كاذبة. كي لا أجري مونتاجًا تزييفًا لروايتنا. فأنا لا أكتب هنا إلا الحقيقة. وما عداها في قصصي الأخرى هو مجرد "تدوين". لذلك لا يجب أن ألوث هذه "الكتابة" الوحيدة بالإخفاء والتراجع، وإن كان الثمن

أننى هويت بالتعبيرات الجمالية وبالخيال الرومانسي إلى قاع الواقع، والقهر الذي أعيشه وشعوري بالعجز عن الرغبة والحياة، فإن ذلك جزء من الحقيقة ومن مسار الكتابة التي أفعلها هنا. فلا تصدم لأن بين "القميص الوردي الفارغ" و"القميص الأسود الطويل" هوة كبيرة، ذلك إنها هوتي، والطريق المدهش بين "القميص الوردي مثل كل شيء" وهذه اللحظة ليس مدهشًا، ولا ينبغي أن يسقطك منكسرًا على إحباط، لأنه طريق الميلاد الجديد، طريق العودة إلى "القوة الأولى" بعد تردد وخوف في الكتابة. بعد فواصل ثلاثة أحوم داخلها قبل أن أصل إلى كتابة هذا القميص الأسود الطويل وأصل "السينما الجميلة" التي أدخلتني إليها بالجدران السوداء التي أعيش داخلها.. لكني لن أسقط في فخ آخر بأن أكتفي بالظلال التي تلقيها على تلك الجدران، وأستغرق فيها، فأفيق بعد مدة من العرض على انتهاء متعة الألوان ورسوخ الأسود الطويل من جديد. لن أفعل ذلك. سوف أختار الطريق الصعب. أن أدمر الجدران وأخلع القميص حتى لا أخرج من هذه الكتابة، فيواجهني الماضي ويجثم على صدري كما حدث ونحن نخرج من قاعة السينما، فأخضع له. ولعل المفارقة بين مفتتح هذه الرواية وهذه اللحظة، تقول لك شيئًا من العمر الذي سلكته بين "فى لحظات كهذه نفترق..." وحتى هذه الكلمة هنا، ونظرة سريعة إلى تباين المفردات اللغوية من المفتتح

وحتى الآن تظهر لك أكوام التجميل والتردد التي نزيحها سويًا حتى نعيد إبداع الحقيقة. استغرقت كل هذه اللحظات والصفحات واللقطات والإيماءات، استغرقت نصف الرواية حتى أصل إلى الإفصاح والمواجهة. حتى أثق في اسمك وهويتك. وأكتب أني أحبك دون توجس بين ثنايا جوفي المهزوم. وربما بلا وعي.

هكذا نغلق الملف على فكرة الفواصل. ونتجاوزها. نجمع أشتاتنا وأزماننا في كتابة واحدة ممتدة. ربما لذلك فالفلاش باك الطويل لم يكن كذلك، وإنما كان نقطة تحول لابد منها. لتجديد الكتابة. والتخلص من تناول نفس قصة المفتتح مرات ومرات وسط لذة التكرار.

***

حسنًا. سوف تحضر اليوم إلى بيتنا للمرة الأولى، لتتسلم مني ترجمة حوار فيلمك إلى الفرنسية. قبل أن تعطيه إلى أنيس عبيد ليتكفل به هو وشمعه المنصهر، ثم يرسل به معهد السينما إلى باريس. أخيرًا سمحت لي المصادفة أن أكون جزءًا من عملك وإبداعك. ومن يدري ربما تواتيك الفكرة المدهشة بأن تضع اسمي بعد التيترات على الفيلم كمترجمة. فيجتمع اسمانا على الشاشة للمرة الأولى. ينبؤني ذلك بأنك سوف ترحل في القريب إلى هناك. لكني لا أحزن لأنني

أعرف كيف سأقضي فترة غيابك. سوف أفرغ تمامًا إلى الكتابة وأنهي ذيول "القميص الأسود الطويل" عن آخرها. وأكمامه. بل ربما أنجح في حياكة قميص آخر من قماشه، يصلح كي أرتديه وأنا أستقبلك عندما تعود. ويكون مناسبًا لمقاسي الآن بعد أن تغيرت أبعاد جسدي بمعرفة أشواقك وحقائقك.

أتوتر كالمتوقع. فيتسرب فرحي باستقبالك هنا للمرة الأولى. وهكذا غالبًا تتسرب جميع مشاعري بالمرات الأولى. فلا أهنأ بها. أقرر أن أصارع التوتر بـ"التفاصيل" حتى تحضر وتزيحها: أزيل التراب عن منضدة حجرة الاستقبال. أرتب الوسائد جيدًا على الأريكة والمقاعد. أعدل من وضع الزهريات والورود الصناعية. أتأكد أن جميع مصادر الإضاءة بصحة جيدة. أفتح باب البيت وأغلقه وأتخيل مسار قدميك من هناك حتى الجلوس في ذلك الركن. أين ستضع حقيبتك العامرة دائمًا بالأفلام والسيناريوهات ودفتر المواعيد؟ هل ستخلع سترتك أم لا؟ موقعك من الإضاءة وكيف سيستجيب لها وجهك؟ رائحتك بعد عناء المواصلات. وأطراف أصابعك بعد أن غادرنا قاعة السينما منذ عدة أيام. وبعض الخيالات الساذجة لفتاة لم تتجاوز بعد سن المراهقة، بينما أصبحت في الخامسة والعشرين، وتقول في قصصها إنها صارت امرأة ناضجة! أبتسم في خجل ولذة. وأعرف أنك أيضًا متوتر الآن وأنت تخطو في شارع تدخله للتو

فقط، وسط أناس يحملقون في مشيتك ويبتزونك بتساؤلاتهم ليعرفوا ماذا أنت فاعل هنا؟ لكنك تقبض على يد حقيبتك وتتعلق بها حتى تدخل البناية وتجد الشقة رقم 7 بالدور الأول ثم تضغط على الجرس، تقف بعيدًا عن الباب كالضيوف المهذبين وأفتح لك سريعًا لأجدك تتنفس الصعداء...

وها أنت تصافحني بحرارة قلما تحدث بعد هذا التوتر الطويل. تتخذ المسار الذي رسمته لك بأقدامي على السيراميك الجديد. ثم تجلس و"تأخذ إضاءتك". بعد ذلك تخلع السترة وقد كنت أعتقد أنك ستخلعها قبل الجلوس. لا أدري ماذا أقول لك، فأرحب بك كما علمتني أمي في طفولتي، وأردد كلمات مترادفة عن أنها المرة الأولى التي تزورني فيها. وأنقذ نفسي من وطأة الموقف بأن أقفز سريعًا لأعد لك نسكافيه بالحليب، بعد استشارتك طبعًا!

يا إلهي! هل أنا بالفعل أتناول الكوب الذي سوف تشرب فيه مشروبك. هل سوف تلامس شفتاك هذا الكوب الذي أتناول فيه النسكافيه كل صباح؟ سوف أضع فيه ملعقة واحدة ممتلئة من المسحوق البني، ثم ملعقتين من المسحوق الأبيض للتحلية، وقليلًا من الحليب حتى يعتدل اللون تمامًا. أمزج الجميع بالملعقة وأسعد لأنني أجهز المشهد من الألف إلى الياء. وأحرم عمال المطاعم التي ترددنا عليها متعة الاشتراك في لقائنا. أحرمهم استخدامنا لأدواتهم المحايدة التي تنتقل

من شفتينا وأصابعنا إلى غيرنا وغيرنا، ويغسلونها هم بانتظام من حرارتنا ومجازنا. وفي وقت قياسي خرجت إليك بالمشروب، دون صينية أو كوب ماء يصاحبه. سحبت قطعة قش مستديرة، وأرحت الكوب عليها فوق المنضدة اللامعة. وفوقهما وضعت شوقي للقاء شفتيك وشفتي على طرف الكوب، وأنت ترشف الرشفة الأولى من النسكافيه الذي أعددته لك بمقاديري الخاصة. تفعل فانتعش. ويعود الكوب المنهك إلى قطعة القش من جديد. التوتر قل شيئًا الآن لكني مازلت لا أجد ما أقوله لك. فأقفز للمرة الثانية وأعطيك الحل الوحيد الباقي: الترجمة التي تريدها. تشكرني في اقتضاب وتريحها هي أيضًا داخل حقيبتك. تغلق السوستة سريعًا فتحدث صوت قطيعة مع اللقطة الافتتاحية لدخولك. أسقط - بعد استنفاد الحلول - على وسادة المقعد الكبير. وفترة صمت غير هينة...

ما زالت آثار كتابة "القميص الأسود الطويل" تقبع على صدري. تضع ذلك "الفلاش باك" الطويل نصب عيني فلا أقوى إلا على الاستجابة للحزن والألم. تتوه أنفاسي بين الرجوع في قرار التحدي واستعادة الذات وبين تجاوز العمر الذي مضى و"الوجود من جديد". بين الرجوع والتجاوز أسقط في فخ الضعف وأكف نهائيًا عن التنفس. تتقلص ملامحي للمصير المؤسف الذي ألاقيه. أرثى لحالى. وأشاهدنى - مثل أحمد فاروق - أسير في جنازتي بينما لا أحد ممن

أعرفهم ينتحبني (سواك؟) وبعض النسوة يفترشن الأرصفة. يضحكن في خبث ويتندرن بالمرأة التي خنقها قميص أسـود طويل. أسـمع أصواتهن من التابوت المغلق بإحكام فتسـتفز نفسي لكسر التابوت والخروج إلى النور، لكني أسقط في الفخ نفسه. أريح رأسي - الذي سـوف تهنأ به الديدان قريبًا - في قاع التابوت، وأسعد لأنه لم يبق لي أنفاس تتوه أو تتوقف.

أزفر زفرة طويلة جديرة بصدر رياضية قديمة مثلي: "أفتقدتك". "أفتقدتك"، فهل استغرقت نصف اللقاء حتى أصل إلى هذه الكلمة! ربما كان ينبغي أن أجهز المشهد بطريقة أفضل من ذلك، كان ينبغي أن أهتم بالحوار أكثر من الصورة والإضاءة وتشكيل المنظر. فأعانقك بتلك الحقيقة لحظة أن تصافحني بحرارة على عتبة البيت. الآن تستطيع أن تسرد لي ما حدث لك في الأيام التي مرت...

تنجح في أن تنقلني إلى أكاديمية الفنون ومعهد السينما، بينما لم أبرح البيت طيلة أسبوعين، ولم يبقَ إلا يوم واحد على مضي المدة اللازمة لفصلي من العمل. وقد كنت أتوقع أني في يوم ما سوف أفقدك، فتكون الصلة الوحيدة الباقية بيننا هي درجات سلم المعهد الذي نصعده، ونهبط عليه كلٌّ وحده. في طريقه. تحمل الدرجات بصمات أقدامنا وتعرف وحدها كيف تمتزج، وأنا أتأمل لونها لأدرك ما انطبع عليه من حذائك وأتشبث جيدًا بهذا الذي بقى لي منك،

وإذا بك الآن تقلب هذا المشهد الميلودرامي رأسًا على عقب، وتصبح أنت الصلة الوحيدة الباقية لي مع عملي ودرجات سلمه فكأني لم أتغيب لأن جزءًا من روحي التي نَمّت بداخلك على حين غرة أصبح يتنقل بي إلى حيث تكون. وربما أنك الآن الصلة الوحيدة الباقية لي مع العالم الخارجي كله. فهل راق لك النسكافيه الذي صنعته دون أن أسألك عن عدد ملاعق السكر التي تريدها فيه لأنني الآن خبيرة بمشروباتك؟ طبعًا لن تجيب الآن لأنك متمهل في كل شيء. حتى اعترافك بجودة المشروب الذي أقدمه لك. دائمًا أنت تنظم الإيقاع، تهدئه، وتحب أن تحتفظ به ممتدًا. فتدمر اليقين الذي أشيعه عن نفسي بأنني أنا التي أقود دفة هذه العلاقة، وأنني أنا التي أكتبها، بينما الحقيقة التي نرسيها أنت في نهاية كل لقاء تؤكد أنك "إله النهايات" التي تختزل كل شيء في آخر لحظة، وترأب أى صدع قد يكون حدث. ربما لذلك أنت مخرج ماهر للأفلام الروائية القصيرة التي تحصد الجوائز. ربما لذلك أنت تفاجئني دومًا. تظهر لي أنني لست بالذكاء الكافي لأنني لأحصل على نتائج صغيرة. وأن أحداثنا تسقط في النهاية في كفك فتتكفل بها وتحنو عليها. وأنتهي أنا بها إلى توثيق وحسب. ومع ذلك فلست واثقة من أن هذه الحنكة من الزمن وضبط جرعات المشاعر وإيقاعات اللقاءات، سوف تقدر على مجابهة "القميص الأسود الطويل" الذي لمحته - بعد وقت قصير - يتدلى من

طرف عيني. ودائمًا أنت هكذا. تلحظ عني كل شيء، وتدرك فورًا ما قد يطرأ في أعماقي وإن جاهدت لإخفائه. لذلك فسوف أجيبك باقتضاب بأنني "كتبت كتابة سيئة هذا الصباح" ثم أصلح العبارة بـ"أعنى كتابة مؤلمة عن تجربة أليمة". فتطرق قليلًا وتعبث بحلية المنضدة وبنموذج مصغر للوحة تعبيرية تعيد ضبط أجزائها. أحاول أن أغير نهاية هذا المقطع من الحوار "أرجوك لا تفسد اللوحة" "أنا لا أفسدها، أنا أعيد إبداعها". وأنا ممتنة لك.

لكنى لا أستطيع أن أبوح لك بما يجيش في صدري. وفي كتابتي. لا أستطيع أن آتي بالدفتر المزركش الذي أخط فيه قصتنا وأقرأ لك "قميص أسود طويل". أخشى أن أقسو عليك. أو أن أواجهه أمامك. أخشى أن يصبح "أسود" حياتي ثالثنا فيما بعد. يقف بيننا كالحائط الصلب. أو يتداخل في لحظاتنا كالشيطان المكير. ويجثم على خيالنا ونحن نمارس الحب. فهل أنا فعلًا ما تستحقه؟

قلت لي ذات يوم أنك إذا أحببت أحدًا سوف تعمل على استبقائه مهما كلفك الأمر وقلت لك وقتها إن طفولتى - التي مازالت تجثم على صدري - علمتني إذا أحببت أحدًا أن أطلقه من بين أصابعي. أدعه يعانق الكون بأكمله ويعشق ذاته وينطلق إلى حيث تنتظره الأماكن. والفرص. فيتذكرني كذكرى جميلة لن تنمحي من قلبه

لأنها لم تود أن تتملكه. وأستبقي أنا آخر إحساسي بذاته وهى تنفلت من أنامله. والآن أجاهد حتى أحب مثلك، لكني تراثي يرهبني من مجرد رغبتي في الجلوس بجانبك على أريكة بيتى المألوفة، وسريعًا ما تتكاتف على رأسي جميع أسباب الرهبة والخضوع فأتوقف تمامًا عن الحديث ولا أجد معني لوجودي. هنا، وعلى غير ما جهزت للمشهد، تقرر أن تعبث بالأباجورة ذات الساق النحاسية الطويلة. تضع طرف قدمك على مفتاحها فتنير. وتعيد الكرة فتظلم الحجرة. وتقود من جديد بأقل القليل من الطاقة. وبين الإنارة والإظلام، أتخيلني أسقط على شفتيك. أنهض ذاتًا أنثوية تهزأ بالقمصان وبلون الحداد الأسود وتجرك إلى عالمها عندما تصبح في الظلام. والسكون. واللا تاريخ. ثم أسقط على شفتيك من جديد. وأنهض في الإنارة. شخصية أخرى كالتى تطيع المجتمع وتتأثيء عند نطق اسمها احترامًا للتقاليد. وتجد نفسها كل يوم منصاعة لتأكيد حسن نواياها وأنها "فتاة طيبة" لا تريد أن تثأر من أحد ولا ترغب إلا في ستر عوراتها. ثم أسقط عليهما مرة أخرى. تنير وتظلم وتحدث بي رضوضًا عنيفة. تصمم أن تجعلنى أدرك - بهذه الخطة الإخراجية - الفصام بداخلي، والضغط الشديد الذي يؤرجحني لمجرد اختلاف الإضاءة. فهل أكون حبيبتك في الإظلام فقط وأتحول مهرجًا سخيفًا عندما تضغط بطرف حذائك

على مفتاح الأباجورة؟ تنصدم فيَّ وتبحث عن تفسير. وعندما ترثي لحالي تعيدنا إلى المشهد الذي جهزته خارج نطاق الارتجال. أرتاح. وانكسر. أسقط هذه المرة على طرف حذائك. لأنه بالضبط ما أستحق بعد هذه اللقطات المتتالية...

***

أغمض عيني. فترة صمت. وأفتحهما على أمل في تجدد دماء المشهد وتهذيب جرعة إحباطه في المونتاج. الموقع تغير قليلًا. وأنت كما كنت. تأمل حدثًا ما يوصلنا إلى ذروة في اللقاء. بينما أدائي كله تنويعات على الهروب والانكسار والخوف. تستفزني كي أتغير. تذكرني بأن "نا" كائن وليد لا يستحق أن نرمي على جسده الطازج هذا القميص الأسود الطويل. أبتسم. وأتدثر بحقيقة مذهلة: إنني امرأة تحب. "أزفر زفرة طويلة جديرة" بصدر امرأة استهلكها الحزن. أعدل من وضع الوسادة المسكينة وراء ظهري المتوتر، علها تريحه قليلًا. ثم أهبط على ركبتي إلى السيراميك الناعم.

أضـــع بعد الأفكار المؤلمة إلى جانـــب المنضدة الرحبة وألتقط أنفاسي اســتعدادًا لحركات إيقاعية مرتجلة: سجود سريع لتخفيف التوتر عن الفخديــن (مع تذكرة عابرة بأنني لا أنوي الصلاة رغم كل شــيء وأتلذذ بإضافة تلك الخطيئة الصغرى إلى قائمة خطاياي

الكبرى). إطالة عضلات الرقبة في اتجاه السـقف. خلع الرأس من أعلـى ووضعه على أطراف الأصابع. بينما الشـعر المموج يظل منسدلًا على الكتفين - المرخيين الآن - والقدم اليمنى ترتفع من وضع السجود ثم تليها اليسرى، حتى أتقدم إلى مجلسك وأنتصب. أغمرك بالمفاجأة: سوف أجلس إلى جانبك مباشرة. على نفس الأريكة. تتهلل: "حقًا!" وأجاورك. وأرخي الاسـتعدادت الجسدية إلى أقلتني إليك. فيعود رأسـي إلى مكانه. وكل شـيء معه. أصبح جثة هامدة على أريكة تحمل عشرين شخصًا في الخط الفاصل بين رجل آمل وامرأة اسـتنفدت جميع حيلها الجسدية التي تعلمتها من الرقص لمجرد أن تقطع مسافة نصف متر من مضدة إلى أريكة. ترثي لمنظرى الآن حيث رقبتي تحت مستوى الكتفين، فخداى ملتصقان، قدماي منكفئتان إلى الداخل، وخصلات شعري منكمشة. تومئ برأسك مثل مدرب خبير وتشير إلى أنني بحاجة إلى انتصاب أطول من ذلك...!

ومع ذلك فدعنا لا ننسى أنني بالفعل الآن أقرب ما أكون إلى جسدك. ومع ذلك فدعنا نضيف أن هذا الوضع يخلو الآن من أى مضمون عاطفي ربما نوحي به.

مع ذلك فدعنا نقول أن الطاقة التي حلمتني إليك ربما تتضاعف يومًا حتى تطلق حبي الانثوي لك من رواء صدري وخيالي وتنشره في الكون.

ومع ذلك فسوف أنهض الآن وأخلصنا من هذا الحرج.

لكنك تضغط على يدي وأنا بين الجلوس والنهوض. تحاول أن تمسك بنقطة الهواء التي لأمستها رقبتى حينما انسلت الواقع في اتجاه السقف. تدعوني ألا أضيع عمري في تأليه الوهم المسمى بخطاياي لأن المجتمع الضعيف الذي نحيا فيه - في النهاية - لا يملك أن يسيطر علينا إلا إذا ملأنا بذنوب من خطايا تشلنا عن الحركة وتسقطنا في جعبته السوداء. أعود إلى الأريكة. هذه المرة كي أحلق - ممسكة بيدك - معك في لذة الاكتشاف. يتشابك رسغانا بين جسدينا وتتخلل أصابعك أصابعي. فيتناسخ التحدي الذي تبثه إليّ مع الدم في عروقي ويسري في ملامحي. فأستطيع أن أفطن - بشيء من الخيال - إلى الحب الذي سوف تدفع به عقلي إلى الأمام وتشحذني لإسقاط الخرافات التي أحتمي بها في مواجهة قوتي الداخلية، متوارية عن كون المعرفة الذي تنتظرني به الحياة داخل "قميص أسود مريح".

"أحبك": تقولها في ثنايا عناق كفينا ورسغينا وتعدني أنك لن تسمح لي بتحقيق الهواجس السخيفة التي كتبتها في "قميص وردي فارغ" عندما خشيت الانطلاق في حبك، أو عندما أردت أن أباعد بيني وبين شبهة الاستحواذ عليك برسالة غرامية. تؤكد - عندما

تمسح بيديك على خصلة من شعري تتأمل في خلسة المشهد من الجانب - أننا تجاوزنا الآن "أحب فيك أنك رجل دون ضمائر ملكية" لأننا قد أصبحنا - بشكل ما - متلازمين. وقريبًا أشعر أنك لي بالفعل وحدي، ويمتد بيننا خيط غير مرئي، وإن تباعدت المسافات واختلفت المواقيت. فلماذا أندهش إذن من زوال الوساوس التي بدأت بها هذا المشهد؟ بينما أوقن أنك تستطيع أن ترى جميع قمصان حياتي السابقة في لقطة بانورامية واسعة دون أن تفتح صوان حجرتي. وتستمر شحنات التحدي بين كفينا. وأنا متأكدة أننا لن ننتهي إلى موت لمجرد أن حبنا في طريقه إلى أن يصبح مطلقًا، لأننا باختصار خرجنا من حدود تراث السينما المصرية الميلودرامية التي ينطلق فيها الحب والغربة دون شروط عندما يكونان مشروطين بالموت فقط مُضفيًا مطلقه عليهما لمدة محدودة بقدومه. لأننا باختصار نستطيع أن ننفذ إلى أحداث طفولتنا وصبانا وشبابنا بمجرد أن تتلامس أصابعنا دون حاجة إلى أن تتسلل لتفتح أزرار قمصاننا، وتفتش بين مسام الصدر عنا. وبالحدس هكذا، أقول لك أنك أنت قريني الصحيح، وليس ميريل ستريب!

* * *

إظلام مفاجئ. وتدخل المشهد "جميلة" ابنتي ذات العامين. على الفور تعيدني إلى لقطات الإنارة المتقطعة. لأنها ترى في أمها ممثلة

مطيعة تستجيب جيدًا لدرجات الإضاءة وتعليمات التصوير ورغبات المتفرجين فتقفز آليًا إلى الجسد المتوقع منها وإيماءاته وردود أفعاله (كأن تتدلـــل في الطريق كي ترضـــي المراهقين على الناصية ولا تغيب عنهم إلا عندما تكون قد قدمت لهم الأداء الذي أملوه لحظة أن لمحوها، كأن تكون المرأة ذات الخطوات الواسعة والفخذين الواثقين، والظهر الممشوق بمجرد أن ترتدي البنطلون الجينز وتتجاوب مع متطلباته الحركية، كأن تطلق شعرها في ليلة ما لأن المناسبة سهرة عامة ذات حيثية فتتقن ترتيبه بطرف أناملها أو تزيحه بحركة خفيفة من الرأس إلى الخلف أمام العيون المنتظرة للكليشيه، وتصبح المرأة المأمولـــة أو فتاة الغلاف الغربية التقليدية، كأن تجيب على رغبات رجال معطلة، ونساء يحنقن على الحظ التعس بالجلوس في وضع مشين أو افتعال ضحكات خليعة أو نظرات وقحة قليلة) ثم تندهش "جميلة" قليـــلًا لأن الازدواج بيني وبين الممثلة التي تتولي قيادتي في اللحظات الحرجة قد شـــارف على التلاشـــي. لكن نظرة ثاقبة من عينيها الواســعتين تكشف لها السبب فتهرع في سعادة إلى يدينا وتشـــاركنا اللحظة. أسعد كثيرًا. وأشعر أن هذا العناق الثلاثي ربما يوقف التيارات الكهربائية في الكون بأسره لأن طاقة الحب والتحدي التي تسري بين أطرافه كلها موجبة. الآن نحن في إنارة كاملة...

Cut

***

وقت طويل لابد أن يكون قد مرَّ حتى الآن. وقت منذ رأيتك للمرة الأولى. ووقت منذ ولدت. اليوم إذن عيد ميلادي رغم محاولات التجاهل والتأجيل. أتم عامي السادس والثلاثين، عفوًا، أقصد السادس والعشرين. فجأة. وعليَّ أن أتهيأ جيدًا للبهجة المفترضة هذه الليلة...

ابتعت ملابس جديدة: سترة سوداء ضيقة بدون أكمام، وتنورة ضيقة - أيضًا - قصيرة للغاية (لابد أن شكلي حقًا سوف يبدو مختلفًا هذه المرة) أطلقت شعري عن آخره دون تصفيف. وتعطرت جيدًا. ثم وضعت قدمي في الحذاء الأسود ذى الكعب العالي. فاكتملت "راكورات" عيد الميلاد (التى أضفت إليها هذا العام بعض الحلي الذهبية لزوم السن) ولم يبق إلا الكعكة والشموع، "وعيد ميلاد سعيد يانورا" (سوف أسمعها لأول مرة من ابنتي أيضًا، ومنك) فتتحقق الطقوس وأبتهج جيدًا. وينتهي اليوم المنتظر سنويًا.

وأتهيأ نفسيًا أيضًا: أضبط ملامحي أمام المرآة. ابتسم. أضحك. أتســاءل. فهل يليق هذا الأداء بالعام السادس والعشرين؟ لا أدري، لكن المؤكد أن الزمن قد منحني عطايا لتساعدني في المهمة: تجاعيد وليــدة حول الفم، وخطوط صغيرة علــى طرفي العينين. وصوت طفلة أرهقت أكثر مما يجب. لا داعٍ للقلق إذن فستسير الأمور وفق المطلوب: ســوف يحضر المعازيم ويمطرون صاحبة عيد الميلاد بالقبلات وبالتهاني وبالهدايا. يلعبون ويرقصون على أنغام الموسيقى

حتى الفجر، بينما الفتاة تسعد بالعمر الذي قطعته، وتتفاءل بالعام الذي يقدم. سوف تنام فيما بعد وترخي جفونها ثم تستيقظ في اليوم التالي لتجد نفسها في عام جديد. ووقت جديد...

وشعور جديد هذا العام، يلقي بوزنه فوق الأشياء: هذا الوقت الذي قد مر. الضحك الذي قد مر. والجهل الذي قد مر. والرقص. والنوم. والجسد المشدود. استعار الوقت مني الكثير. وربما رده إلى بنتي وقتًا ما قبل أن يعيد استعارته منها أيضًا: "مضت أو مرت الأحداث التي كنت أنتظرها وليس هناك قادم": هذا ما يصطدم بقدومك نحوي الآن. تطبع قبلة رقيقة على خدي لتؤكد لي بأن هناك الذي لم يمض بعد. أغمض عيني كي لا تباغتني أصوات قديمة وأنت تسر إلي بـ"كل سنة وأنت طيبة يا نورا" فتتسلل الحروف الأربعة إلى داخلي محملة بنبرتك. أبتلعها وأحب نطق اسمي. وأدرك أن الصوت الذي التقط ورقة الشجر ذات يوم من الأرض، قد صار جزءًا حميمًا من نورا. تدركني - مازالت - بشيء غير متوقع كلما رتبت الأمور. تحول دفة الحياة في اتجاه عكسي هذه المرة، فأجدني الآن على الحافة الفاصلة بين شعور ما مضى وشعور ما يقدم بهذه البساطة...

وأشفق عليك لأنني أعرف أن هناك تجاعيد لا يمكن محوها، وأن الذي قد مر لا يمكن استعادته أو تزيينه...

أنـــا بالتأكيد قد أصبحت أقل صخبًا. لم أعــد مزعجة. ولم أعد أتطفل على مـــن لا يرغبونني. عرفت حدودي جيدًا. وتم ترويض رغباتـــي على مدار ربـــع القرن الفائت. لا خـــوف مني إذن على الأشياء التي ترتبونها وتحرصون على منهجتها. لا قلق من نوبات التمرد التي ربمـــا تزعزع أدوارنا المتقنة. فالطفلة التي كنتها يومًا قد صارت عجوزًا الآن في السادســـة والـ... تصمت جيدًا. تعطي الأجوبة المعتادة. تبتســـم في المواسم المعروفة، تتأثيء إذا اقتضي الأمر. تمعن النظر تحت قدميها وتتمهل عند التنفس. من يمكنه إذن ان يغضب من هـــذا "الملاك"؟! عليك إذن أن تحتاط في تحركاتك هذه الليلة، فالمناسبة لم تعد حقًا تستحق أكثر مما أقدمت عليه بالفعل (قبلة على الخد) وإلا فســـينتهي بنا الحال همسًا وتلعثمًا في أطراف الليل، بين طيات ملاءمة، لا نقوى على انتزاعها عنا. فأنا يا حبيبي لم أكن أبدًا مارجريت "فتاة نهر الميكونج" ولم تكن أنت "العاشق"، وهذه هي المفاجأة التي ادخرتها لك في يوم عيد ميلادي. فقد أيقنت اليـــوم أن النهر الذي أردت عبوره قـــد جف في مخيلتي، وأنني قد صرت محظية للماضي، عجوزًا مريرة ضحك عليها الزمن وواراها المجتمع بين أرجوحاته. أصبحت أحبك وآمل أن نغزل سويًا ملابس جديدة وردية، لكني آمل أيضًا أن أخلص رغبتي من مشـــاعر الإثم التقليدية كلما اشتقت لعناق شعيرات ذراعي وقريناتها على صدرك.

آمل أن "نصبح حبيبين" وألا "تنتهي القصة"، لكن كيف يتحقق ذلك وأنا مازلت أرى نفسي في عتمة "غرفتي الأبدية" امرأة خاسرة فقدت أنوثتها وأسقطتها في جب عميق، ثم تكورت داخل خوائها كي تدفع التهم عن نفسها. حقًا لم تعد لي أبعاد جسدية فهل سوف تتحمل السقوط حيث لا صدى لصوتك. أو لرغبتك؟ وكيف يا ترى سيكون قميصنا الوردي، الذي يرتمي كل منا بعده في أحد أركان الغرفة المزركشة ويضم ساقيه إلى جسده، ثم ينتحب؟

لذلك فأنا ممتنة جدًا لقبلتك. ولن أغضب مطلقًا لأن المعازيم لن يجيئوا، أو لأنه لا توجد كعكة بحجم الأسف. فأنا لا محالة أهدأ بالًا مما مضى. وقريبًا أكف عن رثاء نفسي حتى لا أضطر إلى تغيير عنوان الرواية. فماذا سنفعل الآن قبل أن ينتهي هذا الفاصل، أو قبل أن تنتهي ليلة الرابع من يوليو عام 1996؟

"قدمت إليك رغم كل شيء، رغم الطرق المزدحمة وفروق التوقيت وإنهاك الجسد. قدمت وقطعت المسافات قبل منتصف هذه الليلة حتى لا تكوني وحيدة. لتعرفي أن ثمة أحدًا هناك يسعد ليوم مولدك...

لتخبريني أولًا كيف أمضيت يومك وما شعورك نحو الأيام القادمة بدلًا من أن تبذلي الليلة في حكاوى السنين الماضية فتنالين بغيتك

وتكررين مشاهد الرابع من يوليو الماضية...

وها أنت متأنقة متألقة فهل حقًا رثاء الذات الذي تتجهين نحوه من لوازم الكتابة الأنثوية، أم هو من ضرورات الكتابة البرجوازية التي إن لم تجد لها همًا غرقت في التأملات الوجودية؟

أستطيع أن أكتب لك هنا أنك تسنفدين وقتًا هائلًا في التأجيل؛ تأجيل العمل، تأجيل الحب، تأجيل الحياة. تدورين حول نفسك في دوائر خانقة.. تكتبين ذات القصة عشرات المرات.. ترسمين لوجهك بورتريهًا مؤثرًا، وتروحين تتأملينه من جميع الزوايا الممكنة، فهل تنتظرين مني أن أقفز لأشاركك الدوائر..؟!

قلت لك ذات يوم أنني إذا أحببت أحدًا عملت على استبقائه مهما كلفني الأمر، ولا أعلم كيف استثمرتِ هذه العبارة الشرطية أدبيًا، لكني أقرر اليوم أنني إن أحبك فإنني أعمل على تحريرك: من ذاتك التي تستعبدك.. من هواجسك حول الفضيلة والتقاليد.. ومن هروبك من الحياة إلى لعبة الألم والندم والأسف بمساعدة الكتابة. فإن أردت حقًا أن يحدث الليلة شيء مختلف عن كل عام، إن أردت أن تحتفي بالقادم، عليك أن تتجاوزي أوهام العالم المثالي، والمرأة المثالية.. والرجل المثالي.. وربما الحب المثالي.. فأنا والحب لن نكون أبدًا بديلًا عن إحدى ألعابك، والتأجيل قريبًا يغدو حالة حداد على العمر المحجوز رهينة الخوف...

ولا تنزعجي يا حبيبتي، فالسهرة الحالمة التي أردت أن أجسدها لك لم تكن لتغير من الأمر شيئًا (سوى بعض الديكورات النمطية التي تضفي حالة ما في النص الذي تكتبينه)، وأنا إن كانت صناعتي الحلم فإنه حلم البسطاء المحرومين من رفاهية رثاء الذات والتمرغ في أصدْاء الجسد، فهل تعرفينني حقًا أم اكتفيتِ بالصورة الأدبية التي تروق لك؟ ولصناعتك؟...

ربما أنا أبدو لك اليوم شابًا قويًا ناجحًا.. أو موضوعًا جيدًا لعلاقة حب ناجحة.. لكن هل تساءلتِ مثلًا في نصك الأدبي عما وراء ذلك.. عن العمر الذي سبق ذلك.. والحياة. والنجاح يانورا لا يأتي من فراغ.. والحب الذي أبثه إليك الآن ليس زهوًا.. لم أكن أبدًا فتى منعمًا.. ولا قضيت أيامي في تأمل سقف الحجرة والتساؤل عن المستقبل.. كنت أعمل. وأطمح.. وأتحرر من مخاوفي.. ومن صورتي الصغيرة في عيون من يصادفونني.. لم أجلس ذات ليلة أحيك الخيالات حول حياتي ومولدي.. وكيف يصير عيد ميلادي يومًا خاصًا.. بل ماهو عيد ميلادي أساسًا..

هل تعرفين مثلًا أنك لم تفعلي شيئًا طوال التسعة شهور الماضية سوى تأمل ما بيننا.. وكتابة تلك الرواية.. لم تتقدمي في عملك أو في رسالتك الجامعية.. لم تترجمي.. لم تسافري.. لم تتغيري.. فهل هذه

هي النتيجة المرجوة من علاقتنا؟ وإلى متى تكتبين لتغيبي شعورك بالواقع فتتحولين إلى "مدام بوفاري" أخرى من طراز عصري؟

هذه هي الهدية التي ادخرتها لك في يوم عيد ميلادك. إنقاذك من وهم أنني منقذ حياتك.. طوق النجاة في بحر متلاطم الأمواج.. فهكذا تدركين قوتك وتسقطين صورة أخرى من صورك البرجوازية عن الرجل.. الفارس المغوار.. الذي حتمًا يجيئ يومًا ويحطم الأصنام.. والصناديق.. بينما أنت في الانتظار.. والحياة معلقة على هذا الرجل. هل تفهمين الآن.. أم تصمين أذنيك بموسيقى جنائزية عن صدمتك فيَّ؟

ولا تنسِ أن ثمة أحدًا هنا يسعد ليوم مولدك..

حسنًا. حسنًا جدًا يا عزيزي. تريد أن تردني إلى متن الواقع إذن، فهل تظنني قد غادرته؟

غدًا أذهب إلى "شرقيات" لأعرض نشر هذا "النص" (أم أقول "الرواية"..) أستجمع قواي الذاهبة نحو إنهاك أكيد، وأحاول إنقاذ الكتابة من المد والجزر الذي يمارسه علينا الواقع ومبعوثه الوردي (أنت؟!). أضع حدًا لهذا الروائي الـ.. قبل أن يدخل في متاهات السرد المتكرر. أضع حدًا لترددي في مسألة النشر التي أصبحت تحاصرني عند الانتهاء من كل صفحة منذ أن كنا في "إنارة كاملة"

(هل حقًا هذه الكتابة جديرة بالنشـــر؟ هل عدد الصفحات مناســب لأســميها رواية؟ هــل العنوان مفهوم؟ تســاؤلات ربما يرد عليها الناشر في الوقت المناسب..): أى أنني سوف أنتهي إلى الواقع رغم كل أوهامـــي، لن أبذر أوراق هذا الدفتر المزركش فوق مياه النهر لتنســاب معه قصتنا، لن أضعها في درج المكتب الســـري لأقرأها وحدي خلســـة بعد منتصف ليالي الشتاء الوحيدة القادمة. بل سوف نتحول - ثلاثتنا - كيانًا في واقع أشمل. يبدأ غدًا عندما أصبح امرأة في السادسة والعشـــرين تغدو بثقة وحزن نحو الثلاثين، في شارع محمـــد صدقي بباب اللوق. ولاتغضب يا عزيـــزي لأن العالم كله يمـــر إلي من خلال الكتابة، فيبدو أن حياتي بأكملها هي في الأصل تجربة كتابية، وكل شيء زائل فيما عدا الكتابة...

لذلـــك فقد تعمدت أن أنـــزع من كتابتي الأيـــام التي مرت بين "الإنارة الكاملة" وبين "وقـــت طويل لابد أن يكون قد مر..." لأن الواقع الذي تتحدث عنه الآن ظل ينازعني فيك بشراســـة واضحة وقتهـــا: بعث إلينـــا بفصل الصيف الذي يطلق معـــه النهايات التي أعرفها، الذي يجعلنا نباعد بين ذراعينا عند السير، ولا نستطيع أن نحافظ على احتواءة يدينا أكثر من خمس ثوان. ينطلق البشـــر في الليل الصاخب لغـــزو المدينة تحت أضواء نيون عاهرة بينما نحن نبحث عن الزجاج الجلي الذي شـــاهدنا عليه صورة رجل وامرأة

حالمين في أحد المقاهي الشـتوية. لم نلتق سوى مرة واحدة خلال اثني عشر يومًا وإن داومنا على الاتصال الهاتفي (مثل قصة "هاتف أخير"؟..)، وشيئًا فشيئًا انصهرت رغبتنا في اللقاء داخل الأحداث الخارجية التي تسـاعدنا على جرجرة الأيام، وأصبح اللقاء مسألة "وقت" بدلًا من أن يكون مسـألة "حب". والآن أنت هنا للاحتفال معـي بعيد ميلادي حسـب ما يتيحه لنا الواقع (ذلك الذي تسـابقه بالعمـل وأصارعه بالكتابة - أو ربما أخضـع له بها في النهاية)، ويبدو أنك إذا صممت على الاسـتجابة له فستتحول تلك الأيام التي تمر من حولك - و"التي لا يمكنها أن توجد إلا بك" - إلى مارد آخر يدربني جيدًا على غيابك فأبدأ بالاختزال عندما أكتفي بأن أقول إن "أيامًا لابد أن تكون قد مرت" بدلًا من أن أكتب عن مشـاعري في غيابك والأحداث التي سـعيت بها إلى استحضارك مثلما فعلت منذ حوالي خمسين صفحة (بقطع شرقيات) وأنت خارج مصر، ثم أتلو ذلك بمسـتوى بلاغي تقريري تقل فيه الرومانسـية والخيال حتى يصبح القادم من الرواية مجرد قراءة لما قبله أو استثمارًا له. ربما أيضًا أن الواقع له تأثير أقوى عليك بينما تلامسـنا الموجز وتآلفنا لا يتفجـران إلا عند البدايات. فهل تتذكـر "قميصًا ورديًا فارغًا" مثلًا..؟

نعم، أنـا منغلقة على ذاتي. غارقة فـي تأملات وجودية حول

وحدتي. لكنها ليست رفاهية برجوازية كما يتيسر للجميع أن يقول، فوحدتي يا عزيزي عميقة بعمــق التاريخ وغربتي في العالم تبدو بلا نهاية (ســوى على صدرك؟). وكلما تعلقت برقبة رجل كانت النتيجة ترســيخًا آخر للوحدة، وغربة أكثر قسوة مما مضى لأنك تستشعرها جاثمة على قلبك وأنت ملقى على حافة الطريق (قارعة الطريق) ولعل حروف اسمي التي تساقطت منذ زمن تقول لك شيئًا من هذا المعنى. ولعل النشــوة الكتابيــة التي مررت بها وأنا أبتاع القميص الوردي تقول لك كيف يمكنني أن أكون. بك. ومع ذلك فلا تعتبر تلك الكلمات محاولة لاســتبقائك، ولا تظن أنني سوف أقاوم هديتك، بل ســوف أنصت لسطورك جيدًا - فهو ما قد فعلت خلال التسعة شــهور الماضية - ولو كان الثمن أن يتحول الـ"سنك" إلى "دي سنك"، فيحدث لي نضوج اضطراري...

Cut

* * *

اقترب موعد ســفرك الجديد. لابد أنــك تتهيأ الآن للبلد الغريب الذي ســوف تحمل إليه ملامحك المصرية هــذه المرة، وفيلمًا من إخراجك سوف يلقى نجاحًا كبيرًا. لم نلتقِ منذ قدمت إليَّ هديتك. إلا مرتين أدرنا فيهما حديثًا ملفقًا عن أحوال العمل وعن بعض الناس

الذين نعرفهم، كأولئك الذين كانوا يحتلون المائدة التآمرية الواسعة. ومع ذلك لم تفصح مكالماتنا الهاتفية عن أية رغبة في تغيير الوضع (فهل مــازال الهاتف "موصلًا جيدًا للحــرارة"؟). بل أن اقتراحنا المشترك بالسفر سويًا ذات يوم قد تلاشى دون أن نلحظه، ودون أن نشعر أن سفرك القادم ربما كان فرصة جيدة لتحقيقه..

أعرف أنك سوف تتصل بي ليلة رحيلك لتودعني وتسألني عما إذا كنت أود إضافــة بعض الملابس الأجنبية إلى صوان حجرتي. وســوف أدع المكالمة تمر في ســلام على اعتبار أن كل شيء قد مر حتى الآن "في سلام". على الأقل لأننا خضعنا للتقاليد الشرقية ولم نســتجب لرغبتنا في العناق أو في ممارسة الحب. سوف تتردد حينئذ حول ما إذا كان يجب أن نختتم الحوار بكلمة أحبك أو "سوف أفتقدك" لكنك أيضًا ســوف تأخذ بالحل الأسلم (على عكس ما تفعل في حوارات أفلامك التي أتذكرها جيدًا الآن). ســوف تخطر ببالي كلماتك عن أبطالك البســطاء الذين لا يأملون أكثر من حياة عادية وعلاقات عادية...

منذ أن "انقطعت السبل بيننا" وأنا أعمل على تعلم السباحة دون طوق نجاة، على إدراك ذاتي الحميمة دون وســاوس أو هواجس، علي الانخراط في الحياة والعمل دون تأجيل (أليس ذلك هو الواجب

المنزلي المتفق عليه؟..) ويبدو أن المرحلة القادمة من حياتي سوف تكون مكرسة لذلك بعد أن أطوي صفحات هذا الدفتر وأواجه الواقع. وحيدة هذه المرة. ومعي حقيبتي القديمة التي تتناثر فيها قصاصات أوراق عما كنت أدونـــه أثناء لقاءاتنا (القديمة أيضًا؟..)، ربما إذن هذه الرواية كانت رواية تأجيلي لمواجهة الأشـــياء وحدي، وتعلقي برقبة رجل تبث عيناه شاشة الحلم الوردي. ذلك الرجل الذي يصير يومًا محلًا لذكرى بشـــرة خمرية أصيلة كنت أسعي للتطابق معها، كمـــا لو كنت أبحث عن أبٍ وليس عـــن حبيب (إن لم يكن الحبيب صورة أخرى من صور الاب...)

حتـــى الآن، أنا لا أعرف ما الـــذي فُقد. لكنه على أية حال ليس العدســـة اللاصقة لعيني اليمنى (أو كانت هي اليســـرى...؟!) ولن أطيل البحث عن ما أعرفه فانا أكتب ما برأسي ومشاعري وحواسي فقـــط وليقودني ذلك أينما يقودني فهذا نص لن أختتمه بتفســـير ولا بموعظة نهائية.

وأتساءل: هل سوف تتصل بي عند عودتك؟ بل هل سوف تعود من الأســـاس؟ أم أن سفرك هذه المرة ســـيكون له معنى مجازي؟ وماذا ســـوف نفعل إن عدت؟ حينئذ ســـوف نكون في بداية شـــهر أكتوبر، الوقت نفسه من العام الذي بدأت فيه القصة "قميص وردي فارغ"، أو هو وقت مقارب له على أية حال. وبالطبع سوف تتوالى

علي ذكرياتي الأساســية حول رائحتك ونبرة صوتك وملمس يديك لا سيما إذا تلاعبت بنفسي وذهبت إلى ذلك المكان الذي جلسنا فيه نحتسي الكابتشينو. وأغلب الظن أنني سوف أفعل لأنني لا أستطيع أن أقاوم المقامرة (فمجرد كتابة هذه الرواية من أصل قصة قصيرة أصبحــت الآن المفتتح مغامرة بجزء مــن ذاتي وجزء من علاقتنا لأستطيع الخروج من حال إلى حال، ومن وحدة إلى حب وتواصل، (فهل كســبت المقامرة هذه المرة...؟)، لكنني سوف أقاوم جيدًا إلى أن ينتهــي بنا الأمر إلى تكرار القصة لمجرد أن ذاكرتنا الحســية ذاكرة دائرية تقتفي تكرار مواسم السنة وفصولها. هل اذن "لم نكن مقدريــن كل للآخر، ولم نكن مقدرين إلا لما كنا له"؟) أم أن موت مارجريــت أوحى إليَّ بتكرار نهاية روايتهــا - على الأقل - وفاءً لها؟ وهل كنت أنت الواقف بورود أســفل نافذتي منذ عامين لكني عرضت عنك بينما كنت أغير حفاضة ابنتي وأغلقت جميع "النوافذ الموجزة"؟

يبــدو أننا فــي النهاية لا نختلف كثيرًا عــن أولاد هذا العصر، والتفاصيل التي أردنا إنجازهــا لم نحقق أغلبها ولم "أحتضنك في حمــاس وأنت علــى قمة طموحك دون تنازلات". أو لم نســتكمل "تاريخ المشروب الواحد الذي سوف نتقاسمه سواء أحضره النادل

أم لم يحضره". فقط صنعنا هذه الكتابة، وشـــاهدنا الشاشة العملاقة سويًا ولم نستطع الإفلات من ظلالها.

سوف تظل أنت مخرجًا ماهرًا بين أبناء جيلك بينما تتغير علاقتي بالســـينما منذ أن خفتـــت مفرداتها في كتابتـــي متزامنة مع خفوت إنارتك الكاملة في حياتي. وســـوف أظل أصارع "القميص الأسود الطويـــل" الذي تمكث داخله امرأة مطلقة مدفوعة بوزرٍ لم ترتكبه، تحاول أن تتهرب من صورتها في عيون الناس، فتطوي الأمر في أوراق اســـتثنائية تســـميها "كتابة أليمة" وتضعها بين قوسين لأنها الحقيقـــة الوحيدة لحزنها العميق. لذلك فســـوف أغير العنوان الذي نويته لهذا النص ليصبح "قميصًـــا ورديًا فارغًا" بدلًا من "روائي وردي طويل". ومثلما تفرض الأحداث مسار الكتابة سوف تفرض هذه الكتابة مســـار أحـــداث مقبلة حيث تطلب منـــي قبل الطبع أن تقرأ ما كتبته فأكرر التمرد على نصيحة مارجريت وأعطيك إياها داخـــل مظروف أبيض أنيق، وأنا أعرف أنك ســـوف تبدي بعض التعليقات لأنك تريد أن تعدل من شـــخصيتك في بعض المشـــاهد (مثلما أردت في "قميـــص وردي لا يريد أن يكون فارغًا")، ربما أيضًـــا لأنك تريد أن تجعل النهايـــة أكثر درامية، لكني لن أتجاوب مـــع تعليقاتـــك وإن عدلت بالفعل بعض المفـــردات التي ترى أنها لا تتـــلاءم معك، فالكتابة التي ســـوف يقرؤها النـــاس فيما بعد لن

تكون أبدًا أنا وأنت (إن كانت كتابة من الأساس ولم أكن قد اغتلتها بخوفي واحتجازي)، والحروف المطبوعة سوف تنزع خصوصيتنا وأنفـــاس لحظاتنا القابعة في خطوط الحبر الأزرق لخطي الطفولي المهوش. فلا تقلق كثيرًا...

هكذا ســـوف تنتهي علاقتنا بالرواية التي ســـوف يوضع على غلافها اسمي وحدي تعويضًا عن ذلك الذي فقدته في دفتر المأذون أو في متاهـــات الواقع. أما القميص الوردي فســـوف أطويه جيدًا وأضعـــه في الصندوق القديم المخصص لملابس طفولتي، وأتأهب لمرحلة طويلة مقبلة لـــن أكتب فيها روايات أو قصصًا حتى أفرغ لترتيـــب حياتي للمرة الأخيرة (أو أتدرب على شـــخصية المطلقة التقليدية؟ أو أصير كالنساء الحانقات على الحظ التعس وأشمئز من الحرية؟ أو كأمهاتنا الطيبات المستسلمات؟)...

هكذا تتلاشى الســـينما الجميلة التي أبدعناها سويًا (أو هي التي أبدعتنا؟!) أو تنصهر معك في طيات لحظات نعرفها وحدنا. تتساءل وحدك في ركن ما من العالم عما إذا كنت بالفعل اســـتغللتك كملهم أدبي وحســـب كي أصنع هذه الرواية. وأتســـاءل مجددًا وحدي في ركـــن ما من "غرفتي الأبدية": لماذا تندثـــر طاقة الحب في زمننا هذا، وتتبدد فجأة كالولادة المبتورة، والكتابة المبتورة (وهذه البلاغة المبتورة!)؟

لماذا ينتصر الواقع دائمًا ولا يدعنا نعانق الشمس بينما يتركك تتسرب إلى واحدة من أطفال الليل لتهديها هدية وحيدة في عيد ميلادها محاولًا إطلاقها من حافات الارصفة؟

وهل وقعت في أسر افتتاني بالكتابة فوضعتك في منافسة غير متكافئة؟ أم أنني صرت امرأة عملية تستطيع إنهاء العلاقات جيدًا دون ندم لتنتقل إلى أمور أخرى (كالقميص الأسود الطويل مثلًا)؟

هل ينحسر الماضي عني بعد أن حكيت قصتي في هذا النص، وتصبح هويتي أنني "امرأة تكتب في هذا الزمن"؟

***

لأنها تعرف أنه قريبًا يرحل في شكل ذكرى قادمة، فقد قبلته بين عينيه. وراحت تصحب أوراق الشجر الصفراء والريح تنقلها من ضفة إلى أخري في الشارع العتيق. وحتى مثواها الشتوي الأخير. لم يكن هناك من يقبض علي يدها ويحميها، لذلك فقد كانت أذناها تخدعانها كثيرًا فتظن أن صوته يترامى إلى مسامعها، كانت تهفو إليه وكأنه يسير بمحاذاتها مباشرة فتتوقف لتباعد مرة أخرى بين أصابعها النحيلة وتتركه يتسرب بعيدًا. ثم تتطابق مع ظل قاتم غير مميز يلازم دومًا أوراق الخريف حتى تتفتت هكذا:

لحظة سكون كاسحة

ضمور تام للذاكرة

نقطتا ضوء هلاميتان

متباعدتان

تخفتان تدريجيًا

من الشاشة البيضاء

حتى تتلاشيا تمامًا

ويتعاظم الأبيض الضبابي

وحده.

* * *

بالأمس وقفت أنتظر سـيارة أجرة بصحبة ابنتي. كان الشارع مزدحمًا ولافتات النيون الصيفيـة تحاصره من كل مكان. نظرت إلى الوراء في الهامش الضيق بين إعلان الشـريط الجديد للطيفة وإعلان إحدى المسـرحيات الاسـتعراضية. وجدت القمر مكتملًا وجميلًا. ولم تكن صورتك منطبعة عليه.

النهاية

تنويه

* مفردات خاصة بمجال السينما وتعبيراتها مقتبسة من "معجم الفن السينمائي"، أحمد كامل مرسي ومجدي وهبه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973:

سنك Sync: اختصارًا للكلمة الإنجليزية Synchronism، وتعني المزامنة أو توافق الصوت مع الصورة في اللقطة الواحدة، وبالتالي في لقطات الفيلم كله.

دي سنك de Sync: اختصارًا لنفي المعنى السابق، والشائع استخدام كلمة Out of Sync لهذا الغرض.

لبسنج lipsing: حركة الشفاه الخاصة بالكلام في الفيلم، بينما تزامن هذه الحركة مع صوت الكلام يسمى lip Synchronizatiom

راكورات raccords: جمع راكور أي الاكسسوار أو الديكور أو الملابس أو الإضاءة المتكررة من لقطة إلى أخرى، أو من مشهد إلى آخر.

فوكاس Focus: البؤرة أي ذلك المستوى العمودي على المحور الضوئي للعدسة الذي يجب وضع الجسم المراد تصويره عنده حتى تكون الصورة أكثر وضوحًا.

لونج شوت Long shot: لقطة عامة أي تلك التي تؤخذ للشيء المراد تصويره من بعد متوسط، وتعرضه وسط الجو العام المحيط به.

كلوز آب Close up: اصطلاح فني يعنى أن الكاميرا في وضع قريب من الشيء المراد تصوره.

شاريو chariot: يراد بها في الاستخدام السينمائى الدارج، حركة الكاميرا محمولة على سطح متحرك بعجلات.
كرين crane: وضع الكاميرا على حامل مرتفع للتصوير من أعلى.
بانورامية Pan: يراد بها حركة الكاميرا التي تستعرض المنظر كله من اليمين إلى اليسار أو العكس.
روائي طويل: تعبير الفيلم القائم على قصة مؤلفة في مقابل الفيلم التسجيلي أو التوثيقي. وكلمة "طويل" تحدد مدة عرضه في مقابل الأفلام الروائية القصيرة.

* التعبيرات التالية التي وردت بين علامات تنصيص تمثل عناوين قصص للكاتبة من مجموعتيها القصصيتين "طرقات محدبة"، و"حالات التعاطف":
كابوتشينو
تدوين مؤقت
قارعة الطريق
امرأة مفترضة
نوافذ موجزة
غرفة أبدية
هاتف أخير

* و"ضمائر الموت السري" مقال للدكتور غالي شكري، نُشر بجريدة الأهرام في 1996/4/3.
* "هيروشيما حبي" و"العاشق" نصان لمارجريت دوراس. والنصيحة المقتبسة من نص لها بعنوان "الكتابة".

قبل الموت

لا شيء ينمحي. وجوه الماضي صامدة ما زالت تستعصي على النسيان. وجوه هي إذن منطبعة في كل شيء، على أوراق الشجر المهملة، على الأسفلت غير المستوي، على جدران المسكن المتهدم، على جسدي المتهدل. كل شيء باق إذن ما بقيت ولا مفر من كتابةٍ حاولتُ كثيرًا الفرار منها. حاولتُ الإفلات من الجسد، من ذكرى الألم، من عُريي المجاني، وعُهر الكتابة. كتابتي سوف تشبهني لا محالة، ولكن هل سوف تنقذني؟

ورقة الشجر الوحيدة، التي تصحبها ريح الخريف، تجرفها يمينًا ويسارًا، لم تكن أنا، لم أكن ذاهبة نحو مثواي، كنت فقط أتأهب للقطيعة مع الجسد.

ورقة الشجر كانت هي قلبي فقط، والأبيض الضبابي الذي تعاظم وحده كان موتي الاختياري، باب فتحته عنوة لقتل الروح، للقاء الأذى، ففي ذلك تدريب أفضل على الحياة.

الأبــواب كلها أُغلقت عنوة، حتى صــــار العالم حائطًا أصم. لا أرتطـــم به كل يوم، فقد حفظته عن ظهـــر قلب. أصبح هو طوطم وحدتي. حدودي.

***

في غرفة بعيدة، غريبة، امرأة تخلع ملابسها، سريعًا، مدربة جيدًا هي. تنتظر. هو يأتي. لا يقبّلها. يتناولها بإقبال مدرب. ينالها. لا كلمات بينهما. لا حب. فقط حركات آلية، تعرف طريقها إلى الذروة. هي ملقاة الآن. خالية من نفسها، أوردة تتجمع فيها الدماء، شعيرات دموية متمددة، جزء من الروح انسحب إلى الخارج، إلى مكان ما.

المشهد يتكرر كثيرًا.

***

الشلل قريب للغاية. قادم. يبدأ هو من الروح ويغزو الجسد. عليها أن تستسلم له كليةً. هو يبدأ من انقباض العضلات، من تصلب فقرات الظهر، ثم الثبات، العجز عن المشي، عن الوقوف، العجز عن الوجود.

فقدان السيطرة، أو تلاشي معنى الإرادة. الموت. كل يوم هي تموت إذن، تلك المرأة. أشاهدها أحيانًا داخل حدود عالمي الأصم. أراها تستيقظ في الصباح، لا تعرف كيف تسحب نفسها من الفراش. تقوم ببعض الحيل، تستغيث بالذراعين، بعضلات البطن، بالتنفس العميق، لكنها تفشل. الألم لا يتوقف. تجبر الساق على الانزلاق من الفراش، يزيد الألم إلى درجة غير آدمية. أتساءل من موقعي: هل أعينها؟ أنا التي فُرغت من الروح. لا سوف أدعها تعاني لعلها تكشف لي سرًا يعيد إليَّ الإيمان بالروح. لكنها سريعًا تتوقف تبكي في حرقة رجل اغتصبوه في الأسر. تصبح حقًا امرأة مشلولة.

***

هناك أخلع ملابسي أنا أيضًا، أعني أن أخلع تاريخي، أتعرى من نفسي. وسط نساء كثيرات لا يعرفنني. هذا هو أصعب تعري، كانتزاع لحم طفل حديث الولادة. هن دقيقات، وأنا جسدي غائم، عائم في مياه راكدة، متعفنة. لا يمكنني أن أنظر إليّ، أخشى المرآة، أخشى نظراتهن لأنها تمنحني نورًا، تنتشر في أعضائي، تتخلل ملامحي، وقريبًا تعرف من أكون. أنا المرأة الأولى، الراوية، المتلصصة على امرأة الجسد المدربة، الفارغة، وعلى فراش الشلل الذي يصارع نفسه، يصارع كلتينا. سوف أغلق عيني لعلهن يختفين. لكنني أكاد أشعر بأنفاسهن على بشرتي. أنظر مجددًا أجسادًا كثيرة عارية. أتحاشى التدقيق، ومع ذلك فرغبة عارمة تكتنفني في التعرف على تلك المدارات والبروز والمنحنيات، أنظر بينما قد اكتفى الجميع من النظر إليّ، أنظر والعين تشتهي، ترتوي، تحتمي في لقاء العُري الأنثوي. في حياديته ونقائه نتساوى.

سوف أكتب إذن. سوف أمارس ذلك الفعل المكرور. فعل

استـــتنزاف المعنى. الكتابة كثيرة ومجانية، وأنا ليس بوسعي سوى الكتابة. أراقب، أصارع، أكون، وأمرر تحولاتي إليها هكذا، بنفس عبثية سؤال الرجوع في التحول، الرجوع عن الموت.

***

في يوم / / 2003، في الفراش، قررت أنها حقًا وحيدة، إن رصاصة الرحمة واجبة لا محالة. دخلت في غيبوبة، وعندما استيقظت بعد بضع ساعات، أو أيام، انقلبت يسارًا وخيل إليها أنها تولي ظهرها لمرحلة كاملة من حياتها. لكنها عندما حاولت أن تحرك ساقها اليمنى لكي تنزلق إلى الأرض، تصلب جسدها كاملًا. لم تصدق هول المفاجأة، هي التي خاضت كل المغامرات والمفاجآت الممكنة. تلعثم تفكيرها، فتحت عينيها عن آخرهما كأنما تقاوم ظلمة قبر. كأنها تحاول قهر الهول.

والآن سوف تأخذ نفسًا عميقًا، وتنهض في قفزة واحدة. تأخذ النفس، تكتمه، تنفض نصف جسدها العلوي إلى الأمام، لكنه لا يستجيب. لا يستجيب. فقط يجيبها بالتصلب. تضيع في التساؤل، ثم تنهار في العجز. تقول: "هذا لم يعد جسدي إذن! تلك الجثة العنيدة، كيف أحركها، كيف أقنعها بالإنصات إليّ؟" وتخاف إلى ما لا نهاية، ربما مثل لقيط على قارعة التاريخ مقطع الأوصال. تبكي دون أن تعرف. بكاؤها وحده يسعى للإمساك بطاقة ربانية،

روحية. يقذف بها أرضًا. والآن عليها - ما زالت - أن تنهض.

يمكنها أن تعطي القيادة لعضلات البطن، أن تستخدم حيل التنفس، أن تركز طاقتها الإيجابية في الأعصاب التي تلف الفقرات القطنية. لكنها مفصولة عن ذلك كله، مقطوعة الاتصال بذلك الجزء السفلي من جسدها. نبضها يتزايد بسرعة الجنون الذي سوف يأكلها قريبًا. بسرعة الخوف الذي ربما يكون مصدر شللها. تتساءل: هل سوف يجيء اليوم الذي تنهض فيه أبدًا؟ مجرد مغادرة الفراش صارت الآن معجزة، حلمًا بعيدًا. تفقد الأمل. تبكي في استسلام. بكاء الاستسلام له عذوبة ممارسة الحب أحيانًا. تسلم بلا جدوى المحاولة. تقبض على الملاءة في عنف، وجهها غارق في الدموع التي تبتلعها، ومن مذاقها تتذكر عذوبة الحب، وتسترسل في الاستسلام، في البكاء، جسدها يرتخي الآن، ينتظم النفس، تنزلق في النوم وتنفلت الملاءة من بين أصابعها.

***

أحيانًا يحدث ذلك، أن نتذكر ممارسة الحب عندما نؤلم أنفسنا. في تقبل الألم واحتوائه حلاوة تشبه الحب، حلاوة ينتفي معها معنى الألم. أكتب ذلك وأنا أحيّد جسدي تمامًا، فلم أعد أؤمن بالمعنى. أكتب لكي أنفي أشياءَ كثيرة، لكي أقبض على التحول وأقوده نحو الحياة. أو نحو الموت من جديد؟ لا إجابة لديّ. أعرف فقط أنه

لا مفر من الاسترسال. من الاستسلام لتلك الكتابة. منحتني أنت تلك الأوراق، على طائرة العودة إلى الوطن، أخذتني إلى هناك وإلى الكتابة مجددًا. لماذا ترتبط كتابتي بالحب، والألم، و-الآن- بالعجز، لماذا يرتبط اكتمالها بك؟ أنت، جسدي/ جسري، الذي لولاه لما استعذبت عجزي عن الكتابة خارج هاتين المرأتين والنساء الأخريات اللاتي يشكلنني. أحيانًا يحدث ذلك؛ أن يأتي الحب فنسمح لأنفسنا بالكتابة، بإيلام أنفسنا حتى نخرج من الموت. هن لا يعرفنني، لا يصدقن أنني موجودة تمامًا مثلما فقدت أنا يقين عودتك. لكننا تقاسمنا الأوراق، أنت لكي تكتب فيلمك الجديد، وأنا لكي أنهي فيلمًا قديمًا تعذبت كثيرًا من كتابته في المخيلة. سوف أقص عليك إذن، وعلى حبيبتي حكايات المرأتين، حكايات الخواء والبحث والعجز والمراقبة والانتظار والعري...

شق الرجل العجوز طريقه في عنف، كاد أن يدفع الناس من حوله بمجرد نبرات صوته العالية المتهدجة، كان يقول إنه في عجلة من أمره، أن الوقت حان، أو كاد، كان يصيح "دعوني أمر!" عندما ألقى نفسه على حافة نافذة موظف التسجيل بالشهر العقاري، كان الجمع متأهبًا لسماع القصة، وكان الرجل مستعدًا. جاء هو لكي يسجل قطعة الأرض الصغيرة التي اشتراها لتكون مقبرته. كان

يقول إنه ينبغي أن يسجلها الآن، الآن فورًا، قد توافيه المنية في أي لحظة، ولا بد له - قبل أن يموت - أن يتأكد من أن المقبرة مسجلة رسميًا، باسمه، أن أحدا لن يحتلها بوضع اليد، وأن الأوراق كلها مستوفاة. اهتم الجميع وامتلأت عيونهم بتوسلات خفية لموظف نافذة تسجيل الموت مقدمًا لكي يسرع بالإجراءات قبل أن يتوفى الرجل دون استكمال الأوراق. وسريعًا - بالفعل - وتحت وطأة لهاث العجوز، وارتعاشة يديه، أنجز الموظف المطلوب، ودفع بالرجل إلى الخزينة لدفع الضريبة والدمغة. ارتاح الرجل قليلًا بينما أصداء "لا حول ولا قوة إلا بالله" تشيعه إلى مثواه.

أجل، الحياة قصيرة للغاية. بالكاد تأتينا ثم لا تلبث أن تنفلت، بينما نحاول نحن العثور على مقبرة لا يتمكن أحد من نزع اسمنا من عليها. لذلك قررتُ أن أقتل الموت، أن أمحوه تمامًا من وعيي، قررت أن أعيش الحياة بأقصى كثافة ممكنة، أن أقبض على الزمن، لا أدعه يفلت، لا أدعه يمر. أنا لا أهوى الكتابة، الكتابة استنزاف للوقت، هي قتل للحظات كان من الممكن أن نحياها بدلًا من أن نكتبها. لكنني أكتب، فقط لأن بوسعي ذلك الآن، لأنني ادخرت وقتًا طويلًا في رصيدي الذي تجمد فيه الزمن.

***

أنا المدربة جيدًا، في غرفة غريبة، بعيدة، على خلع ملابسها. هذه تجربة يمكنني أن أنظر إليها جيدًا الآن. الجنس هو الشيء الوحيد القادر على تجميد الزمن. لا شك أن الجميع يعرف ذلك الإحساس بغياب الواقع في لحظات المتعة العالية، هناك أيضًا فقدان الوعي من جراء النشوة العارمة. ربما حدث ذلك لك في أول مرة، مع فض العذرية المأزومة. لكن كيف يمكن لكِ أن تتذكري إذا كنت قد سقطت مغشيًا عليك حينها؟ لا تقلق، أنا سوف أتذكر بالنيابة عنك. تحديدًا لأنني أعشق المراقبة، مراقبة الروح وهي تخرج من الرأس. لذلك، فعندما فقدتُ الوعي - في تلك الحجرة القذرة - لم أفقد قدرتي على المراقبة. راقبتُني وروحي تغادرني، تتسلل كلص عرف لتوه أنه لم يعد بإمكانه البقاء في تلك الأرض الطاهرة. تطهرتُ من روحي إذن. أصبحتُ نقية وخاوية. لم يعد يهم مَن هو هذا الرجل، ولا كيف يشعر تجاهي، فأنا الآن لست أنا، لست موجودة إذن، وبالتالي لا شيء يعنيني. جسدي مسجى أمامه، وليست لديه أدنى فكرة عما يدور داخله وهو

لم يلحظ من الأساس أن في داخل هذا الجسد شيئًا، فكيف يمكن له أن يرى غياب ما لم يدركه أبدًا؟

يقولون إن الرجال لا يمكنهم مطلقًا أن يعرفوا ما يدور بداخل النساء، لا يمكنهم كشف شفراته. وأنا أقول إن كلًا يستخدم جسد الآخر من خلال الجنس للوصول إلى متعته، ولو صادف وتزامنت المتعتان، يطيب لكل منهما الاعتقاد بأنه الحب لا محالة. لقد اختبرت كل تلك المقولات بالطبع، وإلا فكيف أسمح لنفسي بأن أقول بأنني مدربة؟

سوف يستلقي الرجل بجوارِكِ إذن، دون أن يعرف ما إذا كنت نائمة، أم مستيقظة أم حالمة. ولن تواتيه الجرأة لكي يكتشف. دائمًا هم كذلك فيما يتعلق بالاكتشاف على الأقل. وأنت سوف تعودين إلى الوجود، وعندما تفتحين عينيك لن يمكنك تحديد الوقت الذي مر، تحديدًا لأنه لم يمر وقت، فقد جمدتِ الزمن، خرجتِ من تياره. عندما لا نكون موجودين لا يحدث شيء، لا يمر شيء. وهنا يمكنني أن أقول إنني نجحت. والرجل؟ أداة جيدة لقتل الموت، هكذا دون أن يعرف. وطالما أترك له جسدي يعبث به كيفما شاء، فهو سعيد.

هو سعيد، ومقزز ومنفر. لا يمكنني حتى أن أنظر إلى وجهه. رائحته تصيبني بالغثيان، لكنني معظم الوقت لا أتنفس. لا أعرف

ما يحدث له حينما يصل إلى لحظة الأورجازم، فغالبًا ما أكون قد انسحبت إلى ذلك المكان. تعودت على ذلك، أن أسترخي تمامًا لكي لا أشعر بالألم، في الاسترخاء نافذة سرية إلى النشوة، ومن ثم إلى الغياب التام. سوف تقولون "وكيف تتسنى المتعة في الغياب؟"، وأقول إن المتعة نفسها هي الغياب. هو ليس موتًا مؤقتًا كما سوف يظن كثيرون، هو عين الحياة، بلا قيود الزمن، الحياة بأقصى حرية، الحياة خارج حدود الجسد، والتي لا يمكنها أن تتحقق إلا بقتل الجسد كل يوم، إلا باكتشاف أنه لا لذة سوى فقدان اللذة.

عندها سوف تجيء سهلة ومتفجرة، دون حتى أن نلحظها لكن ذلك لن يعنينا حينئذ. أم تراه سوف يعنينا رغم كل شيء؟

أقتل جسدي إذن لكي أقبض على الزمن. وأنجح. يتوقف كل شيء من حولي، تزول الأسماء. يندفع الموت بعيدًا، ربما.

يقولون أيضًا إن الموت هو عندما تتساوى كل الأشياء، أما أنا فلا أعرف، لم أخبر الموت، أنا ضد الموت. أما هؤلاء المهمومون به، الذين يفكرون فيه كل يوم، ويذكرونه في كل صفحة من صفحات كتبهم، فهم الميتون حقًا. هم يتماهون معه بطريقة أو بأخرى، أما أنا فلا، كتابتي تثبت أنني بعيدة كل البعد عنه.

يقولون أيضًا عن صنفي من النساء إنهن "عاهرات"، وهذه الكلمة بالطبع كفيلة بإثارة المخيلة، لذلك فالجميع يغريه التعرف إلينا. حتى النساء. أجل، لقد حدث واستأجرتني نساء من قبل. كن يردن معرفة أسرار المتعة، كأنهن يدفعن من أجل درس خصوصي. وأنا لم يكن لدي شيء أعلمه لهن، بل العكس هو الصحيح: إنني تعلمت منهن، ومعهن، كيف يدور الحوار، بعد سنوات من الإيمان بالخرس. تعلمت الإنصات، والبقاء قريبًا حتى النهاية.

أما الرجال فواضحون للغاية، واضحون إلى درجة تفقدهم الشاعرية مهما حاولوا. ولوضوحهم هذا فهم قريبون مني للغاية. كالسهل الممتنع. نفهم كل الآخر دون حاجة إلى قصص وأغنيات. اثنان ليس بينهما شيء سوى الاتفاق على المتعة العابرة، ولكل منهما أن يأول هذا حسب ما يحلو له. وأنا يحلو لي أن أظن أن كل علاقة بين رجل وامرأة هي علاقة عابرة، أو علاقة ممتدة ومتعة عابرة، كل شيء عابر لا سيما متعتهما التي لا حوار وراءها. كلنا إذن نتساوى وأظل أصر أنه لا يجب أن تكون هناك كلمات، مشاعر، قبل، فقط يجب أن يكون ما هو جوهري.

المشهد يتكرر كثيرًا. كثيرًا. حتى يصير كعقار الإدمان، عندئذ نحتاج إلى منشط ما أو إلى جرعة إضافية حتى يحدث التأثير المنشود. نبحث ونبحث. نقتل أنفسنا بحثًا حتى نجد ذلك الشيء

الجديد. لكن بالنسبة لي، لم يطُل البحث كثيرًا، فبسهولة عرفت أنه ينبغي فحسب مد الخط على استقامته...

***

ومثلما يحدث لي أن أكتب دون أن أهوى ذلك بالفعل، يحدث لكثيرين منا أن يفعلوا أشياءَ دون رغبة حقيقية، دون دافع حقيقي، ويحدث كذلك أن يفعلوا أشياء دون أن يفعلوها حقًا، أحيانًا لمساعدة الزمن على أن يمر، هكذا من خلال أفعالهم الجوفاء، المنقوصة. وأحيانًا لأن شيئًا لن يتغير سواء فعلوا أم لم يفعلوا، أو هم لن يخسروا شيئًا على أية حال، بفرض أن الخسارة نفسها تعني شيئًا. وهكذا تحدث الأشياء التي يندمون عليها فيما بعد، الأشياء التي يخفيها الأزواج عن الزوجات - مع أنها سبب استمرار الزواج - والأشياء التي تخفيها النساء عن الرجال قبل الزواج، وطيلة العمر. الحياة إذن قائمة على تلك اللعبة: الخسارة كمبدأ - أفعال جوفاء - استمرار كاذب - متعة سرية. تلك اللعبة الدرامية التي لن يعترض سريانها أحد أو شيء، تحديدًا لأنها لعبة تكريس الموت، حيث ينتهي الحال بالجميع إلى نافذة تسجيل المقابر بالشهر العقاري.

أنا لن تكون لي مقبرة. وإن أصروا، فماذا سوف يدفنون فيها على أية حال؟ الجسد تحلل على مراحل طوال، البشرة، اللحم، العظم، الأعصاب. ذلك أوفر كثيرًا ولا حاجة بي إلى أوراق التسجيل، أنا

جهاز مراقبة وتسجيل دقيق.

***

تصرخ صرخة مدوية. صراخها يوقظها. عيناها مفتوحتان عن آخرهما، الجسد كله متصلب، كقطعة أسمنتية واحدة، ضغط هائل على الفقرات القطنية. تكاد لا تتنفس. المرأة التي عاشت عامين حتى الآن مع الشلل - دون مسكنات - تحاول أن تسترخي، تحاول أن تدع نصفها السفلي يتنفس. لكنها تفشل، كأن وحشًا أسطوريًا يقبض على مركزها. أصداء صرخاتها ما زالت تتردد. "ماذا يعني ذلك؟ ماذا يعني ذلك؟" تتساءل ملهوفة كعادتها. تتأوه محاولة إخراج النفس المكتوم، تتأوه كأنما تلد نفسًا، يخرج هواء شحيح وضَيِّق مكتوم، وبقيته بالداخل ما زالت، متحشرجة أسفل الظهر. تبحث الآن عن نفس تأخذه إلى الداخل، تبحث، تفتح فمها عن آخره، أنفها، تتأوّه مرة أخرى، تكاد تصرخ، كامرأة تحت الاغتصاب دون تخدير. يصل النفس المنشود، ينقبض نصفها السفلي في عصبية زائدة. "ماذا يحدث؟ ماذا يحدث؟" تتساءل مجددًا.

الوقت الآن ليل، والمرأة وحيدة كعادتها. تحاول - ككل يوم- أن تنهض من الفراش. هذه المرة أصعب من كل مرة. الخوف أعظم، والجهل بما هو آت كذلك. أكتب ذلك بالنيابة عنها، ليس لأن الكتابة حرفتي - فأنا مكتفية هنا بكتابة نفسي حينما يأتي دوري

- وإنما لأنها لا تملك أن تمسك بالقلم، لا تملك أن تفعل شيئًا، ولا حتى أن تنظم كلمات متجاورة تعبر عن حالتها، أو تطلب بها النجدة. أحيانًا يحدث أن تبول في الفراش، يعرف ذلك جيدًا مرضى الأعصاب والشلل بأنواعه. رائحة البول في البداية كانت تصيبها بالذعر، ذعر أن عضوها سوف يتلبس دوما تلك الرائحة. كانت تريد - في البداية - أن تقطع عضوها لو أمكن لها ذلك، طالما لن تستطيع التحكم في البول. كانت تبكى. تتذكر الجدة، والخالة، الأم، والعمة أيضًا، ملامح القسطرة، لون الملاءة الأصفر، بشرة السرطان الشفافة، اللعاب الذي يجف سريعًا في الفم، والممرضة السمينة، ذات العضلات، والابتسامة الحنون. كان القدر أن يصيبها السرطان بدورها، ذلك ما كانت تتأهب له، ولم يحدث، لكن رائحة البول في الفراش لم تزل متطابقة.

تبكى مجددًا. وطعم بكائها يختلط برائحة البول، تنزلق الدموع داخل إحدى فتحتي أنفها، تنزلق إلى الحلق إلى الحنجرة، هذه المرة يأتيها النفس دون أن تجاهد من أجله، فقط عندما كفت عن طلبه. تتنفس بعمق أكثر، تبتلع في أنفاسها رائحة البول، ثم ترقد في الحلق، على وسادة من الدموع. حسنًا، الآن يمكنها أن تبدأ محاولة اليوم، المحاولة رقم 378.

تفتق ذهنها عن ضرورة ألا تعاكس جسدها. ألا تقسو على

نفسها. قررت هذه المرة أن تنقسم نصفين بالفعل، الجزء العلوي يتحرك ويستيقظ، والجزء السفلي يظل في سباته العميق، وبالفعل تبدأ. الأصابع والرسغ والكتف، يعلون، يشيرون إلى السقف. يقفون وحدهم، والوجه يبتسم، يدرب عضلاته، والعنق يميل يمينًا ويسارًا، تتبعه العينان. هذه رقصة "الممكن" المفرحة، والمخدرة بشكل مؤقت، للحظة يخيل إليها أنها بالفعل قادرة على الحركة. أنها تتحرك، ترقص. يتهدج صوتها بدندنة ما. الذراعان تتطوحان في الهواء، والكوع يتحول إلى ركبة، في أعلاها الفخذ، ثم عظمة الحوض القوية عند الكتف. تتخيل أنها تستطيع الذهاب حيثما تريد، تستطيع الجري والقفز. ربما الشيء الوحيد الذي يفسد خيالها، هو أن رأسها يقع الآن بين فخذيها المتخيلين، وبالتالي فسوف يصبح لشعرها سريعًا رائحة البول، شفتاها سوف يصبح لهما مذاق البول، تتباطأ الرقصة، تتكور الأصابع في قبضتين مهزومتين، والركبتان تسقطان سقوطًا مدويًا على جانبي جسدها. الرأس ما زال مشرئبًا. يبدو أنه لم يكن حقًا يعبأ برائحة البول.

تنقلب على وجهها، فجأة، دون أن تخطط لذلك، دون حتى أن تعي أنها تنقلب، لكنها تجد نفسها في ذلك الوضع، وتظن أن الرقصة شحنتها بطاقة ما لذلك الفعل الجهنمي غير المأمول. ربما هي سعيدة. لا هي سعيدة بالفعل، لكن ليس تمامًا، هذا وضع جديد

ومثير، يساعدها على الشعور بثديها، على تذكيرها بأنها ما زالت تملك شيئا "أنثويًا". هناك لذة في ذلك. لكنَّ هناك أيضًا ألمًا يزداد باطراد. وزنها الذي زاد أكثر مما يتحمله قلبها، أصبح يضغط أكثر فأكثر على الفقرات السفلية. البطن متدل إلى أسفل. في تجويف الفراش، وعضلاته متهدلة تمامًا. ذلك بالطبع يرفع الضغط عن الفقرات السفلية للظهر. ومع ذلك فالظهر مضطر للتقوس بفعل الخط الطبيعي للجسم، وهو ما يؤلم حتى لو كانت عضلات البطن قد رفعت ضغطها عنه. تحاول أن تبتلع الألم. لكنه يزيد. يعاندها. يكابر. تحاول إقناع ظهرها بالاستمتاع بتلك الفرصة النادرة، فرصة تغيير وضع النوم لأول مرة. يجاهدها. تستسلم. وتبدأ محاولات العودة إلى الوضع المعروف. الوضع الأبدي فيما يبدو.

هذه المرة تشعر أن كل حيلها قد استنفدت. حيل الحركة وحيل خداع الألم. ذهنها أيضًا لا يسعفها بأية خطة استراتيجية للعودة. هي امرأة لم تتعود على تصميم خطط للعودة، خطط للحلول البديلة. لكنها تتعلم. "ماذا الآن؟" لأول مرة بذهن شبه هادئ. هي تعرف أنه لن يمكنها القيام بأية حركة مفاجئة من هذا الوضع المهين. وتعرف كذلك أنه لا طائل من التخيل واللعب لأنه سرعان ما سوف يضيق بها نبض القلب. هي عليها إذن أن تجد حلًا منطقيًا وفوريًا. وهي ليست خبيرة مطلقًا بما هو منطقي، لكنها تحاول. تقبض عضلات الردفين، تقبضهما بشدة. يكادان أن يتحولا إلى حجرين.

المفاجأة: "هذا يخفف الضغط كثيرًا عن أسفل الظهر! إذن هناك طريقة!". ترخى العضلات وتقبضها مرة ثانية، يمكنها أن تتمكن من قوة العضلات هذه المرة، ومن ثم تعطي إشارة لعضلات البطن أن تستيقظ من تهدلها، ومن تدليها، هذا يستوجب مجهودًا أكبر، وتدريبًا. تقضى حوالي خمس عشرة دقيقة في محاولة التنفس من البطن، كما كانوا قد علموها فيما سبق في دروس الرقص والتمثيل، النَفس يصل إلى تجويف البطن، البطن يمتلئ، ثم يخرج النفس تاركًا البطن مجوفًا وعضلاته منقبضة إلى الداخل، شيئًا فشيئًا، يستيقظ البطن. الآن، ما عليها سوى أن تجمع بين حركة البطن والتنفس وانقباض عضلات الردفين. تبدأ تتمكن. وعندما تشعر أنه قد أصبح لها مركز من العضلات الموثوق فيها، تنسل إلى الأعصاب، وخلف الفقرات، والظهر الذي مالت سلسلته إلى اليمين من جراء الحادث الذي وقع لها، تتناسى حتى رائحة البول الذي ما زال فراشها مبتلًا به، تأخذ نفسًا عميقًا وأثناء خروجه تندفع كثعبان يحاول العودة إلى وضعه الصحيح، الساقان لا تفعلان شيئًا. الذراعان الحالمان والكتفان والراس يكتفون بمتابعة الحدث العظيم. والمنتصف، المركز، يضطلع بالقيادة. وتنقلب في دفعة واحدة.

هي الآن على ظهرها من جديد. تمامًا كما كانت منذ ساعات، طوال الأيام - بل الشهور - الماضية. لكن العودة لم تكن يسيرة بتاتًا. ربما طاب لها اكتشاف وضع جديد، اكتشاف ما هو "ممكن" لكنها

لم تكن حقًا مستعدة للتغيير. لم يكن الجسد قد آن أوان استيقاظه بعد. أجل، عرفت كيف تتواصل مع المنتصف هذه المرة، تقريبًا، وأدركت الأصعب. أنه يجب الاستسلام للشلل بشكل كامل. ينبغي الإنصات له، ذلك الجسد. ينبغي العثور على السلام الكامن في العجز الكامل، ومن ثم إيجاد قوته، وقيادته نحو الحياة، نحو الحركة. قالت "سوف يستغرق ذلك وقتًا طويلًا، لكن لا بأس، ليس لدينا سوى الوقت، لا قيمة للزمن، هو يمر ويمر، وأنا محجوزة هنا في هذا الفراش، في تلك اللحظة الخالدة، لحظة محاولة النهوض". كانت قد اكتسبت مسحةً من الحكمة في ذلك اليوم، فيما يبدو، وفي هذا الإطار من الواقعية السحرية، أدركت أن عليها معاودة المحاولة من الصفر، أن الحياة تبدأ كل يوم من الصفر، وأنه عليها إبداع جسدها / ذاتها من الصفر، كل يوم. لا شيء بديهي. لا شيء مجاني. يمكنني أن أقول إنني أعجبت بتلك المرأة، بإصرارها على المحاولة على الأقل. بالرغم من أنها لا تملك أي مفتاح لتلك المحاولة القادمة، لكنها تستعد للنوم في سلام هذه المرة. لا تنتابها الهواجس المعتادة من الكوابيس المعتادة، والصرخات المدوية - الوحيدة - بـ "لا". شيء عجيب. تغلق عينيها. تشد الغطاء حتى كتفيها. تضم ساقيها. تضم ساقيها في ثقة وعنف. تقبض عضلات الردفين، والفخذين. تشعر بلذة ما بين فخذيها. رأسها يسترخي. كأنها على أعتاب نشوة قادمة، أو حلم بها على أقل تقدير. تتنفس عميقًا، وتغرق في نوم

قديم. أناملها تستقر فوق الرحم، في شبه سلام.

ما زالت يداها ترقدان - في سلام - فوق الرحم. ربما يكون قد مر زمن، وربما اللحظة لم تتبدل بعد، لكنها في الوضع نفسه على أية حال. تحلم. هذا هو نشاطها الأساسي منذ أن وقعت طريحة الفراش. في الحلم خليط من ذكريات وهلاوس ومداواة. أستطيع أن أقرأ حلمها، هي شفافة للغاية لي، على وجهها أستطيع أن أرى كل شيء مما يدور في ذهنها، ما يختلج في نفسها، حتى ما تود أن تحوشه. هي عنيفة في كل شيء، وأول عنفها يقع دومًا على نفسها، هي مبالغة في كل شيء. ليست هناك مسافة بين عقلها وجسدها، ما يطرأ عليها ينفذ فورًا إلى جسدها. كأن عقلها هو جسدها. كيف تفكر الآن إذن وقد فقدته؟ هذا ما لا أستطيع قراءته.

أناملها الآن تتقلص، كأنما مر شيء داخلها. تتقلص أكثر، تبدو مثل مخالب نمر. أظافرها تكاد ترشق أحشاءها، والعينان تتحركان تحت الجفنين. هي في مكان ليلي مهجور. أسود. مبدورة فيه قبور عديدة، مجهولة. تسير وحيدة، لكن خائفة، حتى من قبل أن يظهر هؤلاء الرجال المتشحون بالسواد، ويطاردونها. هم بالضبط رجال العصابة التقليديون، بالمعاطف الجلدية السوداء، والهجوم المنظم، الكاسح. لا شيء يجمعهم سوى مطاردتها، والسواد، اللا ملامح. تجري، تجري لتفلت بحياتها. وهم بالطبع وراءها، سربًا واحدًا.

لا مكان للاختباء، الأرض خالية إلا من شواهد القبور، ولا ومضة نور واحدة. تجري إذن، تلهث، وكلها ثقة أنها سوف تفشل، سوف تتعثر في شيء يقلبها أسفل، لكنها تحاول فليس لديها سوى جسدها، وجودها الوحيد، ومفتاح خلاصها. ساقاها من المفترض أن تقوداها نحو الحياة. وهم كثيرون، لو استدارت لتراهم، ربما تعرفهم، لكنها بالتأكيد سوف تفقد ثوان ربما ساعدتها في الخلاص، لو استدارت إليهم، إلى الوراء، قلت فرصتها في الخلاص. تصوب عينيها إلى الأمام، لكن الأمام أيضًا سواد، ليل عظيم، والرؤية لا قيمة حقيقية لها. تجري إلى أن تشعر أنه لا وقت حتى للتنفس، لكنها لا تعبأ، جسدها قوي يستطيع أن يتحمل، لكن القبور على المدى كحقول مترامية". أين النهاية إذن، أين العمار والناس؟" تتساءل دون رد. عندها تدرك أنهم لا يتوقفون، لن يتوقفوا. تسعفها ألعابها التمثيلية، هي الممثلة الماهرة، تقرر أن تتباطأ لكي يتمكنوا من إصابة هدفهم في راحة، وإطلاق الرصاص عليها. بالفعل تتباطأ، يطلقون الرصاص، لكنه لا يصيبها بل تمثل أنه قتلها، ترتمي أرضًا، وتكتم أنفاسها. يأتون، يقتربون في همة، يعاينون الجسد، يزيحونه يمينًا ويسارًا، يختبرون التنفس، حدقتي العينين. هي ماهرة وكل العلامات تدل على الموت. يرتاحون، يضعون المسدسات في جيوبهم، ويرحلون، لا يكترثون حتى بدفع الجسد إلى إحدى المقابر العديدة المتناثرة، لا يكترثون بإخفاء فعلتهم. يختفون في ظلام معاطفهم. عندما تتأكد من رحيلهم،

تحاول معاودة التنفس، معاودة الحياة، تحاول أن تحرك ساقيها لتنهض وتعود من حيث أتت. لا شيء يحدث، لا إشارات تصل إلى جسدها. تفكر وتقرر، ولا شيء يحدث. جسدها لا يستجيب. لقد ماتت إذن بالفعل. أتقنت التمثيلية إلى درجة أنها قتلت نفسها بالفعل، والآن وقد رحلوا لم تعد قادرة على العودة. ما حدث إذن هو أنها قتلت نفسها بالنيابة عنهم. من جراء خوفها من أن يقتلوها، من شدة خوفها، تكفلت هي بقتل نفسها. ليسوا هم القتلة إذن، بل هي.

***

تصرخ صرخة مدوية صراخها يوقظها. هي صرختها المفضلة: "لا" لكنها لا تدرك منها إلا صداها، فقط الحرف الأخير، تسمعه وكأنه صادر من حنجرة امرأة أخرى. فقط كي تثبت لنفسها أنها حية - ما زالت - وأن الموت ما هو إلا حلم، كابوس اعتيادي يتكرر منذ الطفولة، لكنه حي الآن - ومخيف - أكثر من أي وقت مضى. تتنفس برعب أولًا، بلهفة، ثم بشيء من الارتياح، والانتظام. أظافرها تخف قليلًا عن الضغط، بالرغم من ان علامات حمراء غائرة قد حُفرت هناك، وقد لا يسهل محوها. تتمنى للكابوس ألا يتكرر، تتمنى أن تغمض عينيها لترى ما بعد نهاية حقول الموت، لترى الشمس والسماء.

***

أكدت الأشعة ذات الرنين المغناطيسي، وتشخيصات الأطباء الذين نادرًا ما يتفقون على شيء، أن هذه المرأة لابد أن تكون مشلولة، عاجزة عن الحركة، وبالرغم من أنها - وقتها - كانت أمامهم، كانت تسير وتجلس وتقف، إلا أنهم أصروا أن الشلل قادم لا محالة، أن هذه ما هي إلا حلاوة روح، والعجيب أنها لم تكن قد شُلت بعد. ربما أن كلماتهم هي التي قادتها إلى العجز في النهاية، فهي من النوع الذي يتأثر ويتقمص في لمح البصر، لكن المؤكد، أن الفقرتين الرابعة والخامسة كانتا مخلوعتين تمامًا من مكانهما، العمود الفقري بأكمله بدا كأنه يميل، يتحرك حثيثًا نحو جانب اليمين من الجسد. كانت كثيرًا ما تشعر بأنها منقسمة نصفين، هكذا رأسيًا. جانب يعاني، مضغوط، وجانب يتحمل ويحاول تحمل الجانب الآخر. كان هذا الانقسام يصعد إلى رأسها، يقسمها نصفين أيضًا، يصيبها بالصداع الذي لا يعضده إلا الأعصاب المضغوطة حول الفقرات السفلية، والتي تعطي أيضًا إشارات إلى المخ بالألم وبالضغط، فيسير تيار الوجع من أسفل الظهر إلى أعلى الدماغ، يخترق الجسد، ويرسخ الانفصام. رأسها كان ينفلق أحيانًا من الألم، لكنها كانت تحاول دومًا الموازنة بين آلام الرأس - المعتادة لأن الرأس دائما يؤلم بدرجة أو بأخرى - وآلام الجسد. الرأس هناك، حركته الوحيدة في التفكير، فإذا شل تفكيره لا ضرر، أما شلل الجسد فعجز تام. موات.

أوصوا إليها إذن بأدوية عديدة، معظمها مسكنات للآلام، بعضها سوف يدعها تنام فترات طوالًا، والبعض الآخر قد يصيبها بالدوار أو بالغثيان أو بالضعف العام. رفضت الأدوية رفضًا قاطعًا، كانت تصر أن جسدها كفيل بالألم، أن الألم علامة الحياة، فإذا فقدته فقدت مؤشرها إلى الحياة، إلى المقاومة. كانت تؤمن كذلك بأن جسدها نقي، لا يجب أن تخترقه الملوثات الكيميائية، هي وحدها التي تعرف منطقه ومفاتيحه، فإذا استسلمت للاعتماد على بديل لإرادتها، فسوف يكفر بها جسدها وتكون القطيعة الحقيقية. أيدت خيار الوجع، لأنه حقيقي، وما عداه مخدر وقتي يسحب القوة الداخلية تدريجيًا. لكنها لم ترفض الصدمات الكهربية، غير أنها عدلت عنها بعد المرة الأولى، تحديدًا لأنها تتلاعب بغباء بكهرباء جسدها ودوائره المغناطيسية. الأشعة تحت الحمراء لذيذة، دفء يتخلل العظام، يجعلها تدرك أن البرودة تغلغلت في هيكلها عميقًا دون حتى أن تشعر. الليزر جهاز لئيم، يقولون إنه يساعد على الالتئام، لكنه يعبث بشيء ما داخلها، هو ليس بوضوح الصدمات الكهربائية الغبية، لكن شيئًا ما فيه كان يستفز روحها للمقاومة، الجلسة تستمر، وطوال العشرين دقيقة لا شيء يحدث سوى أنها تقاوم، تقاوم من الداخل شيئًا لا تعرف كنهه، لكنها تحول دون وصوله إليها. تتنفس وتزيحه إلى الخارج.

راقدة ووجهها إلى أسفل، كانت تتناوب عليها الأيدي، جميعهم

يبدءون بعدم التصديق، إن هذا الجسد الشاب، القوى فيما يبدو، يعانى هذا المرض، ثم ينخرطون في محاولة الاكتشاف، يفشلون. كلهم كانوا يتعاملون مع جسدها كأنه لوح خشبي لا تواصل معه، وأحيانا كأنه شيء محرم لمسه أو الشعور بألمه أو استجابته. الرجال كلهم كانوا خائفين، متوترين، أو لاهين عن مهمتهم الأساسية. كانت تتوسل إليهم، تقول إنه ينبغي ترك الخوف جانبًا، إنها مريضة وتستحق مداولة الألم. كانت تشرح جسدها، ألمها، كانت تقص تفاصيل عن الطريقة التي كان يحيا بها هذا الجسد، عن التدريبات والمسرح والرقص. ولم يفهم أحدهم شيئًا. ولم يشعر أحدهم بشيء، ولا حتى صيحات "المسني، المسني! أزل الوجع إن تظن ذلك بمقدورك". ولم يكن بمقدور أحد غيرها.

***

ترتسم على وجهها الآن شبه ابتسامة، يبدو أنها تسمع موسيقى ما محببة إليها. شيء في نومها يتغير، في جسدها، بالرغم من أن الوضع كما هو لم يزل. لكن وزنها يخف بطريقة ما. هي الآن في ذاكرة عنفوانها، في قاعة واسعة، ترقص، تمارس آداجيو الوجود. هي أمام المرآة، في مكان ما في آخر القاعة. وبينها وبين نفسها المنعكسة أجساد كثيرة. لكنها لا ترى نفسها، ترى المرآة فحسب وعليها انعكاس حركاتها. لكنها لا تتعرف جسدها هناك، لا تتوحد معه، لا تراقبه، لا تتأمله. لنقل إنها لا تدرك نفسها التي في هذا

الجسد، لكنها تملكه. لنقل إنها - هكذا - لا تستطيع أن تنفصل عنه وتدركه من الخارج. هي فقط تدرك الأجساد التي بينها وبينه، أما هو فلا. هو في الداخل فقط. وتستمر حركاتها التي ليست حركات، بل هي وجودها ذاته. والموسيقى صدى لذلك الوجود المتناغم. هم لا يفهمون ذلك، ولم عساهم أن يفهموا؟ هي بالنسبة لهم مهنة، أو نشاط، أو مجرد ساحة للتنافس أو الاستعراض، ومع ذلك فهم أكثر الأجساد التي عرفتها ودًا وقربًا، أجساد تقف بين نفسها والمرآة، لا قرب أكثر من ذلك إذن.

في تلك القاعة، وعلى خشبة مسرحها، وفي غرفتها أيضًا أمام المرآة، عرفت المنطق وميكانيكا الأشياء. الجسد تروس تتحرك سويًا، تعتمد بعضها على بعض، كل جزء يؤثر في الآخر ويتأثر به بالضرورة، وشفرات تلك الميكانيكا تختلف من جسد إلى آخر، ويمكن قراءتها من مجرد المشية، الجلسة، إيقاع التقاط الأشياء، اللفتة، الانحناء والدوران. يمكننا أن نعرف مواطن الخلل والقوة، مركز الجسم، نقاط وجعه، وذاكرته برمتها، من مجرد حركة. يمكننا أن نقرأ ما قد نظن أننا محوناه من ذاكرتنا، لأن الجسد - وحده - لا يحذف شيئًا، هو يجمع، ويدمج، ويعبر، سواء أتقنا قراءته أم فرضنا على أنفسنا الأمية. يقولون أيضًا - على قدر ما تتذكر هي - إن التنفس أيضا مؤشر آخر على ذاكرة الجسد وهويته، لكنها لم تخبر ذلك إلا مؤخرًا. عندها عرفت أن تنفسها مكتوم، إنها

تصارع لكي تأخذ نفسًا، وتصارع لكي تخرجه كأنها - أبدًا - تلعب لعبة الموت مع المعاطف السوداء التي - ربما - لم تعد أصلًا تكترث لوجودها. لكنها - هي - ما زالت تكترث لأشباحهم.

في حركتها إذن سر كينونتها، شفرتها الجينية. عندما كانت تلقي بوزن أكبر على ساقها اليسرى عند السير، أو تفضل عند الانحناء أن تثني ركبتيها عن أن تميل بخصرها، كان ذلك يعني أن الداء في أسفل الظهر، أن خانة ما صلبة أصبحت تحد مجال حركته، لكن الخانة أيضًا تضيق أكثر ناحية يمين الجسد، ذلك الجزء الذي صار يبدو كعبء، صار أبطأ من الناحية الأخرى. بينما جسدها كله يشبه تدريجيًا برج بيزا المائل. شيء خطير في معظم الأحيان أن تدير رأسها إلى أي من الجانبين، أو إلى الوراء، الميل بالرأس إلى أسفل أيضًا مهمة تستحق استعدادات خاصة، لذلك فيستحسن أن تلتفت بكتفيها، نصف التفاتة كي لا يصل الضغط إلى الخصر. وفي جميع الأحوال، يجب أن يتم ذلك كله ببطء شديد، فأية حركة أو إيماءة سريعة أو مفاجئة من شأنها أن تشل الحركة بالكامل، حيث يتم ضغط أهوج على العصب - كأنك تشد وتر تشيللو في عنف زائد وتتركه فجأة فتفزع له كل أعصاب الجسم الأخرى.

في شفرتها أيضًا أن يدها اليمنى كانت كثيرًا ما تصيبها بالخجل، فالإمساك بالأشياء الصغيرة لم يكن بالشيء الهين، والأشياء الثقيلة

لم تكن أبدًا أهون، أما الحركات اليدوية الدقيقة فقد كانت أصابعها لا تكف عن الارتعاش خلالها. هل كانت هي وحدها التي تستطيع قراءة تلك الشفرات، أم أنها كانت مكشوفة للجميع؟ لا يمكنها - ولا يمكنني بالطبع - الإجابة عن ذلك، لكنه يبدو أن توتر المرء من كشف ضعفه هو الذي يفتتح الفضول حوله. لمفاداة ذلك فقد تدربت طويلًا على إبداع تصميم خاص لحركتها، تصميم يكون من شأنه ألا تضطر إلى القيام بأية حركات صعبة عليها، وفي ذات الوقت يمكنها من إخفاء عيوبها الحركية. كان عليها إذن أن تسير دومًا مسرعة، لأن السير المعتدل يسمح للرائي بوقت كافٍ لملاحظة أن القدم اليسرى تلمس الأرضية وقتًا أطول من القدم اليمنى، وأن اليمنى لا تنطبع في الأرض حقًا لأنها لا تحمل وزنًا يؤهلها لذلك، فقد أنابت اليسرى عنها بحمل الجسد كله ونقله إلى الأمام، فلو نظرنا إلى آثار قدميها لوجدنا التباين جليًا للغاية، كأنها آثار جسد نصفه مفرغ، ونصفه الآخر يحمل شخصين.

كان في تصميمها المحكم أيضًا أنها يجب ان تعدل من أوضاع جلوسها كل عشر دقائق، تحديدًا لأنها إن لم تفعل فسوف يتصلب جسدها في الدقيقة الحادية عشرة، وعندها لن تستطيع النهوض من مقعدها أصلًا، وهي - على جميع الفروض - لا يجب أن تستمر جالسة أكثر من نصف الساعة. وعندما تنهض من مكانها، ينبغي أن يتم ذلك تدريجيًا، وبوعي شديد، لأن الجسد يستغرق برهة لكي

يتكيف مع وضع الوقوف وإعادة توزيع الوزن، والتعامل بشكل رأسي مع الجاذبية. كانت هذه اللحظات التي تمر بين وضعي الجلوس والوقوف، مفيدة أيضًا للاستعداد نفسيًا للسير، وكان يلازم تلك العملية التنفس بطريقة مدروسة ليصاحبه انتقال الضغط من منطقة إلى أخرى من الجسد، فالأوكسجين الذي يصل إلى نقطة الألم ربما يساعد على تخفيضه، وتكنيك التنفس الكامل والبطيء لا شك أنه يحمي نظام الجسم من الفزع. من مكملات هذا التصميم أيضًا استخدام عنصري الكلام والتفاصيل، فالكلام من شأنه أن يلهي جليسها عن تحركاتها المريبة، ويبعد تركيزه عن الترتيب المنظم لطريقة نهوضها وسيرها والعكس، أما التفاصيل فتخفي داخلها توترها من أن تنكشف، وتخلق بها ستارًا حاجبًا بين ما يدور داخل جسدها وما يصل إلى الآخر، التفاصيل تسرق العين، وتشرد بها أحيانًا، والتحدي الأكبر أن تغرق هي نفسها في تلك التفاصيل حتى تمارس تصميمها نفسه دون أن تدركه، تمارسه بآلية من لا يعنيه لو توقف التصميم فجأة، وهو ما لم تنجح فيه أبدًا.

كانت دائما تفضل أن تنزل من سيارة الأجرة بعيدًا قليلًا عن المكان الذي تقصده، فلحظة النزول وملامسة الأرض هذه كانت صعبة للغاية، ولم تكن تستطيع أن تجازف بإمكان أن يراها أحد ممن يعرفونها. كان النزول بعيدًا يتيح لها أيضًا بعض الوقت لكي يتكيف جسدها مع الحركة والسير، بعد الجلوس لفترة طويلة، أي

كنوع من الاستعداد الإحماء لمنظومة مختلفة من العمليات الحركية. كان عليها أيضًا ألا تتجاوز خمس دقائق من الوقوف المتواصل، على أقصى تقدير، لا سيما إذا كانت تحمل شيئًا أيًا كان وزنه، فذلك الوضع كان هو الأسوأ لحالتها، ومن شأنه أن يؤدي مباشرة إلى شلل ساقها اليمنى، دون أن يباريه في ذلك إلا القيام بأوضاع صعبة لم تجرؤ من الأساس على أن تجربها.

كان محرمًا عليها أن تجري أو تقفز، أن تصرخ - لأن الصراخ يصدر من البطن ويخترق الفقرات والأعصاب ويهزها. أو ترقص، أن تتقلب في نومتها أو ترتدى حذاءً عاليًا، أن تحمل شيئًا أو أن يحملها أحدّ. كان محرمًا عليها أن تحبل لأن ذلك شيء سوف يؤدى حتمًا إلى الشلل التام. هكذا أجمع الأطباء، هؤلاء الذين أجمعوا من قبل أنه قادم لا محالة. عندما فردوا الصور الأربع كانت تنقسم إلى عدة مربعات صغيرة متماثلة، في داخل كل مربع كانت هناك لقطة من زاوية مختلفة لجزء من العمود الفقري، ذلك الجزء الذي خُصصت له الصورة أصلًا، فكان الصورة تعكس ذلك الجزء وقد انقسم إلى جزيئات، كل جزء يجسد الجزء الأكبر لكن من وجهة نظر مختلفة. وهكذا كانت الصورة الكبيرة تضاعف من الشعور بمدى انقسام هذا الجسد على ذاته، ربما انقسام لا نهائي ومتعدد المنظورات. كانت الصورة الأولى إذن للعمود الفقري، كأنه جبل ممتد وفي لحظة ينقطع ثم تظهر بقيته من جديد في أسفل، وبين

ظهوره واختفائه وظهوره مرة أخرى، فجوة، سواد. هذا السواد قالوا إنه محل الفقرتين المخلوعتين. هالها منظر الصورة عندئذ، هالها أكثر السواد، وتساءلت كيف إذن تتحرك؟ كيف تصل الإشارات والاتصالات من الفقرات والأعصاب في أعلى - قبل السواد - إلى الفقرات في أسفل، ومن ثم إلى الساقين؟ وتساءل الأطباء - كجواب عليها - كيف يتواصل هذا الجسد مع نفسه وقد شُق هكذا؟ ماذا يدور في تلك المساحة السوداء المبهمة، والتي من المفترض ألا تكون فيها حياة؟ بدت السلسلة الفقرية كحبل سوف يشنق به الجسد نفسه من الداخل، لكنه مقطوع لسبب ما يجهله الجميع.

الصورة الثانية بمربعاتها كانت بالضبط كفك حيوان أسطوري، الفقرات نفسها من الداخل بكل تفاصيلها كانت أقرب إلى المخالب، لكن التشكيل العام للمربعات سويًا أعطى إيحاء أقرب إلى الفك. كل مربع كان يقترب من مجموعة معينة من الفقرات، اقتراب يشبه أفلام الرعب التقليدية، وفي مكان ما من الصورة تظهر بقع سوداء مفاجئة محل فقرات متوقعة، تباغت الناظر وتخالف استكانته لما هو متوقع. وتعكس الإيقاع. الفقرات الغائبة هي عتبة الموت، عتمة المرور من فك الحيوان الأسطوري إلى غموض الجوف.

أزاحوا الثانية من على لوحة الإضاءة التي لم تكن قد رأتها من قبل إلا في الأفلام السينمائية، ووضعوا الثالثة. مكان غريب من

الظهر، حلقات متتالية غير مكتملة. في كل مربع زاوية مختلفة للحلقات، هذا نوع آخر من السواد، فقط عند المنطقة التي لا تكتمل فيها كل حلقة، ومع ذلك فلا خلل هناك، الخلل في الحقيقة عندما تختفي الحلقات تمامًا من بعض المربعات. أحيانًا في السواد موت، وأحيانًا مجرد سنة من سنن التكوين. "كيف نعي الفارق إذن؟ بل كيف نعي سواد الحياة من سواد الموت في أرواحنا" لم تصل إلى مسامع الأطباء أي من تلك الأسئلة الساذجة لحسن حظها. ثم جاءت الرابعة: السلسلة الفقرية من جذرها، نظرة لئيمة من أسفل إلى أعلى، والمربعات كلها كحوش سلم مشروخ، تترامى على جنباته أجزاء من الحوض. لكن ماذا أتى به إلى هنا؟ لماذا أصر الأطباء على هذا المنظور الأخير - العجيب - الذي يربط للمرة الأولى بين العمود الفقري - الراسي - وبين أفقية الجسد الأنثوي، قاعدته / حوضه، تلك التي توحي باستقرار وتقبل للعالم، كحفريات تاريخية. في تلك المربعات، لم يظهر أن هناك خللًا، على الأقل لم يتوقف أحد ليشرح أي خلل في الرابعة. فقط تعجبت هي من تلك الجداريات العتيقة وهى تجسد أكثر دواخلها حميمية. بدت موحشة، وحجرية، وصامدة هكذا على حائط النيون الجليدي، بينما الطبيب يطفئ الإضاءة في حركة آلية مباغتة.

***

في حركة آلية مباغته كذلك، تصلبت ساقها اليمنى تمامًا، خذلتها

هكذا قبل ساعتين من العرض المسرحي الذي ظلت تستعد له طويلًا. تملّك الفزع منها، كانت تلك هي المرة الأولى، حركة غدر حقيقية إذن. كان الجميع منهمكًا في عمله، واثقًا أن المخرجة التي تمثل بطولة عرضها - تعرف جيدًا - مهمتها. لكنها كانت ضائعة. كان جسدها نفسه قد أصبح خارج نظام تحكمها. بكت كطفلة تاهت من أمها. في غرفة المكياج، تمتمت "ماذا أفعل الآن؟ ماذا أفعل؟" عندئذ عاند جسدها أكثر، ضاعف في الألم. نهضت كبداية لاستخدام التصميم المدروس الذي وضعته لإخفاء حالتها. أمام المرآة، لم تكن هناك أجساد تفصلها عن صورتها، لم تكن هناك موسيقى، لم تكن هناك متعة ولا أمل. كان هناك فاصل زمني قدره عشر سنوات. ضحكت وسط بكائها. في هذا الجزء من الثانية فقط خف ألمها. بدأت تدندن بنغمة هي صدى ما لتلك الموسيقى القديمة. نظرت في المرآة. هذه المرة، المرآة شاسعة وهى قريبة للغاية، وحيدة، عارية من أي تصميم حركي يخبئ عجزها...

لقد فقدت الإحساس بالساق اليمنى تمامًا، كأنها غادرت جسدها. تستند إلى الساق الأخرى. تتقمص نفسها القديمة: تفتح ذراعيها عن آخرهما، تبتسم، تحاول أن تستدعي طاقة ما، تقذف بساقها الميتة إلى الوراء، بمساعدة يدها، ثم تحاول أن تلقي بوزنها فجأة عليها لكي تقوم ببيرويت خفيف وسريع. لكن الساق بالطبع لا تتحمل شيئًا. الجسد بكامله يسقط أرضًا.

فشلت إذن قوانين الميكانيكا القديمة، والتفاؤل الطفولي، ووهم موجات الطاقة الإيجابية التي توقظ الجسم. تعتمد على ذراعيها، تعتمد عليهما كأنهما ساقان معكوستان. أما مركز الجسد فهو البطن الذي سوف يتولى هذه المرة القيادة وتوزيع الوزن. عضلات البطن تجاهد، ترفع الجسد من منتصفه، بينما الذراعان والساق اليسرى يؤمنان الحدود، يؤازران. بمعجزة صغيرة - لكن صعبة التكرار - تقف، تتخذ مكانها مرة أخرى. المرآة هذه المرة أكثر شساعة مما مضى، أو ربما جسدها هو الذي انكمش فجأة، عاد بها إلى سن اكتشاف معجزة الوقوف، ثم المشي، لكن هذه المرة بلا أم، بلا معلم. تفهم أنه لا طائل من مفاجأة الساق بحركة، لا فائدة من توقع استجابة سحرية، ساقها فاقدة الشعور بالفعل، وبالتالي غير قادرة على إنقاذ أي موقف. لا مفر إذن من التحايل. من إيهام الساق بقدرته على المشاركة - ولو ضئيلًا - في العملية التمثيلية، عساه يقتنع بالإيحاء. تسمح لنفسها بالوقوف مائلة ناحية اليسار، تثني الساق اليسرى، تعتمد ثانية على البطن - لكن أسفل الظهر يعتصر، وهي لا تنصت له، كأنها قسوة بديلة وتجر الساق اليمنى. كتراث ميت لا حل إلا بتره. يبدو أن الساق خفيفة، أو هي تريدها أن تبدو كذلك. تجرها بالفعل، لكن تعترضها أزمة أول خطوة إلى الأمام. تشل تفكيرها. يتواطأ بطنها مع ساقها اليسرى، المتورطة في خطة لا تكتمل، ويحاولان سويًا إقناع اليمنى بالتمثيل. ينجحان

فحسب في تحييدها عن العجز. تتحول إلى ماريونيت فيها شيء من المرونة الغامضة. يتمكنان إذن من مفاجأة العقل بخطوة أولى لا تتحرك فيها العاجزة لكنها تتحمل وزن الجسد - بالكاد - بينما الأخرى تنفرد وتنثني لتقطع خطوة جديدة تجر فيها التراث الميت إلى الأمام. ثم تتوالى خطوات تقودها ساق واحدة ووحيدة، وتتخللها محطات قصيرة - فأقصر - من التنفس، من تحمُّل العجز لوزن لحظي. تقطع الغرفة نحو المرآة، تتقدم وهى تبدل ساقًا بنفسها، بعجزها، حتى تلتصق بالمرآة. الآن يمكنها أن ترى جسدها، لا حركته، بل هو نفسه من الخارج. صورته قريبة، خائفة، والمرآة بحجم جسدها فقط. هي الآن ما تراه، وجسدها هو الداخل والخارج معا. تدركه عندئذ، كأنما للمرة الأولى. ترى نفسها وتتفاعل مع المرآة. في لحظة منفلتة، تتوحد تماما مع صورتها، تستطيع أن تكون ما تراه، وتشعره. تختفي المرآة من مجالها، تصبح عيناها المرآة، تكتسب إرادة جديدة - ولو مؤقتة - من إدراكها لذلك التوحد المزدوج بين نفسها وجسدها، هي من الخارج ومن الداخل. يختفي الشلل للحظات. ربما تمتد بها لكي تتمكن من تقديم عرضها تلك الليلة، أو لنقل إنها تأمل ذلك، لساعة أخرى واحدة.

***

حسنًا، الآن يمكنني أن أكف عن المراقبة وأستكمل حديثي. أمد خطي على استقامته، بلا وهم. أعرف أن لي صوتًا غريبًا، غير منسجم مطلقًا مع زميلتي في هذا النص، لكن لا بأس. أنا لم أهتم أبدًا بنظرات الآخرين، بما يعرفونه عني، لم أضع نفسي في مواجهتهم فهم لا يعنونني في شيء. كل منا يمضي في مساره، ولو حدث وتقاطعت المسارات فلن ينظر أحدنا حتى للآخر، أو لن يكترث بالنظر. لا فارق جوهري إذن بين الوحدة وضدها، كل الأضداء متشابهة، وتضادها درب من الخيال، نخلقه برغبتنا.

***

توقفت السيارة إلى جانب الطوار، حوالي الساعة التاسعة مساء في شارع البطل أحمد عبد العزيز، بداخلها ثلاثة رجال بمن فيهم السائق. المرأة النحيلة - نحول الهيكل العظمى - كانت تقف هناك، متكئة على سيارة أخرى فارهة. مالت بجذعها، تحدثت إلى الرجل الجالس إلى جانب السائق، ناولها سيجارة من علبة مارلبورو

حمراء، أشعلتها في التو. كانت هناك فيما يبدو مفاوضات ما حول السعر، كان لا بد من ذلك، فقد كانوا ثلاثة دفعة واحدة. طال النقاش أكثر من المعتاد، كانوا هم مستمتعين بذلك، أما هي فقد نفد صبرها سريعًا، أو آلمها ظهرها من طول الانحناء. كانت على وشك القبول المتسرع، لكن ابتسامتها الهازئة كانت تردها عن هذا القرار الطائش، وعندما شارفت السيجارة على الانتهاء، كانت قد وصلت إلى سعر شبه مُرضٍ. ألقتها أرضًا ولم تدهسها بقدمها. عندئذٍ نزل ثالثهم من المقعد الخلفي وحملها إلى الداخل. كانت المرأة ذات ساقين صناعيتين. كنتُ في الثانية عشرة من عمري، ووقعتُ في غرام تلك المرأة. حفظت ملامح وجهها البلاستيكي عن بُعد، دون أن تعرف هي أبدًا أنني هناك، مستعدة لنجدتها فقط لو ذهبت نظرتها بعيدًا وأدركتني.

كان العالم كله يتنصل من تلك المرأة، من عاهراته، من حقيقته. العالم الذي خلقهن وبتر سيقانهن، هو نفسه الذي يوليهن ظهره، محاولًا التخلص من عورته. هذا عالم يقتلنا إذن، لذلك فهو جدير بأن نقتله بدورنا. فهو عالم موت.

دفعني الرجل من الباب. فقط كي يسهل دخولي وينهي ترددي. كان فارع الطول وعريض المنكبين كما يقولون، لكنه لم يكن يكبرني، ربما بعام واحد أو عامين على الأكثر. أتذكر من هذا اليوم،

والشهور التي تلته، رائحةً عطنةً، وهواءً باردًا ينفذ إلى العظم، ودخان المارلبورو الأحمر الذي يعبئ الجو. لا أتذكر الجنس، ليس لأن أعوامًا عديدة قد مرت - فأنا جهاز دقيق للتسجيل والمراقبة - وإنما لأنه لم يكن هناك جنس. كانت هناك عمليات آلية متكررة من الفعل نفسه، كل يوم لمرات كثيرة. فقدتُ القدرة على العد، أو ربما الرغبة فيه واكتشفت لعبتي المفضلة، لعبة الغياب، واللذة بفقدان اللذة. كان هناك ألم، لكنني تجاوزته بعد تلك التجربة. أستطيع أن أقول إن الألم تجربة عبور في حد ذاته، لماذا نكرهه إذن، لو عانقناه لما شعرنا بأذى. من الجائز أن تلك الفترة كان فيها تدريب مهم لي، كطقس التحضير، وأهم ما في هذا التدريب كان تغيير علاقتي بالألم. بدأ ذلك من الجسد وامتد إلى الروح، من الرحم وصولًا إلى الرأس، ثم الخروج. وبعد ذلك لا شيء، لا شيء مطلقًا. مجرد متعة الغياب.

الأشياء أبسط كثيرًا - إذن - مما نظن. يمكن نسيان الجسد، والتخلص من كل همومه، هكذا يمكن النجاة، ويمكن أن نكمل الساقين الصناعيتين بأجزاء أخرى من المصنع نفسه. وأراهن أن أحدًا لن يلحظ الفارق. لن يلحظ أحد كذلك الفارق بين الابتسامة الحقيقية والابتسامة المصطنعة، بين دموع الوجع، وبكاء حُرقة الحب، بين عناق العاشقين والحركات الآلية المتكررة للفعل نفسه. وربما أن الفارق طفيف على أية حال فلا يجب علينا أن نلومهم.

أستلقى إذن على ظهري، وأتقبل كل ما يُلقي إلىَّ به العالم، أقبله، أتسرب منه، وأعانق فرصتي الوحيدة في قتل الموت. الرجل يُقبل، يرى أثداء وأعضاء، ربما شيء مثير للشهوة، لكنها ليست أنا، هي بياض الموت تقريبًا، والجنس كله عملية خداع، مجرد جسر لتجميد الزمن. في ذلك إذن ألعاب تمثيلية أصيلة، هناك التأوهات، حركات الأصابع، الأظافر التي تقبض في اللحم كأنها تريده حقًا، الاحتكاك بالصعود والهبوط، التمرغ في الشعور، استنشاق الرائحة، دغدغة الحواس، الهمس في الأذن، التفاف السيقان، عناق اليدين، التهام العنق والشفتين والصرة ثم رعشة الولوج، طويلًا، وانفراجة الساقين أكثر، ثم لا شيء.

***

أحيانًا يجب التحايل على النفس، فقط في بعض الأحيان القليلة عندما يهيأ لها أنه يجب الإقلاع تمامًا عن تلك اللعبة، أن ربما هناك بديلًا لا نعرفه. عندها يجب - فعلًا - الإغراق في اللعبة، ولو كانت قد استنفدت صلاحيتها فهناك دوما المزيد، هناك بوابة سرية لإضافات سحرية كفيلة بالغواية بالاستمرار.

أمسكتُ بالموسى واقتربتُ من ساقي اليمنى. بحركة سريعة أحدثتُ جرحًا طويلا قصيرًا. شعرت باللحم وهو ينفتح، ينفصل عن نفسه، ثم ينز من الخط دم. لم يكن دمًا كثيرًا، فقط بمقدار اللذة

المطلوبة، تلك اللذة المزدوجة في حُرقة شق اللحم وحمرة الدم وهو يبرز كالمفاجأة. وبين الحرقة والحمرة دفء السائل الذي يكوي طرفي اللحم، ويجعلني أتأوه - في صدق هذه المرة - وأتوه قليلًا. في الجرح نشوة غريزية تطيل الحياة. نشوة يستحيل على أحد أن ينوب عني فيها، فهذه هديتي لنفسي، اكتشافي الطفولي الصغير. اكتشاف طورته إلى حرفة دقيقة تعرف أين يجب القطع، إلى أي مدى، إلى أي طول، وبأية ضغطة، ومتى سوف يتم الالتئام. وكلما فقدت لعبة الجنس تأثيرها، ظهرت لعبة الجرح لتنشطها وتسهل الغياب. يمتلئ الجسد بخطوطه الصغيرة، خارطة نشوته الداخلية، النرجسية، الممتدة جميعها على استقامة واحدة...

تلك جداريتي التي يمكنني وحدي قراءتها. يمكنني أن أفهم السر وراء توازي خطين لم يكن مقصودًا لهما أن يتوازيا، لكنهما عدلا عن ميلهما لكي يشكلا قضيبين يحتمي المعنى بينهما وينساب، وعلى ضفتيه الأحمر المتجلط. لكل خط إذن سبب وظرف، لكل لحظة شق طقسها الخاص وسحرها. على لحمي إذن ألبوم ذكرياتي، بطاقة هويتي التي لا يمكن محوها، ولا مصادرتها. الخطوط كثيرة الآن، لكنها أبدًا لا تتخذ مكانًا ظاهرًا. ليست أبدًا على الوجه أو العنق، أو الذراعين، أو الكتفين، فهي تداري نفسها جيدًا، وتمتد وتتكاثر لتكون قضبانًا لا نهائية ليست هي سجني مطلقًا، بل هي بالأحرى منافذ خروجي إلى الحرية. لا أحد يفهم ذلك

بالطبع، ولو تعثر رجل في خط صغير فسوف يتجاهله لكي لا يعطل مهمته، أو - على أقصى تقدير - سوف يقلق من طبيعة الرجال الآخرين الذين يضاجعونني. فقط النساء يلاحظن ذلك، ويجبرنني على الاعتراف، على قراءة تلك الخارطة. لكن لغتي لا تسعفني، ورغبتي في الحفاظ على سري تقف حائلًا. لكنهن يصررن، ومع غياب الترجمة، ينخرطن في التخمين المخل، يحاولن معرفة من أكون، يحاولن أن يقرأنني وفقًا لأبجديتهن. لكنهن يفشلن. ومع ذلك فمجرد المحاولة مسلية.

***

لا أتذكر الآن أية طموحات قديمة في مستقبل مغاير، أتذكر فقط رغبتي في الحصول على الحقيقة المطلقة، رغبتي في أكون إلهي الخاص، أن أقف على قمة العالم وأقول إنني أستطيع إيقاف الزمن. لكن الأحلام القديمة تفقد رونقها بمرور الزمن، أو بمجرد تحققها، ومع ذلك تظل هي نهاية المطاف لكن ربما دون سحر. وأنا لم يخلق لدى بعد الحلم البديل، لكنني راضية. أعرف أنه يمكنني الظهور في أي مكان والحصول على الرجل الذي أريد، هذا شيء خالٍ تمامًا من التعقيدات. الرجال يريدون فحسب أن يعرفوا أنهم لن يتورطوا في شيء، ولن تكون هناك مترتبات لما يفعلونه. هم مخلوقات في حاجة دائمة إلى الشعور بالأمان، على عكس ما هو شائع عنهم من أنهم مصدر للأمان. لذلك ينبغي الحفاظ على

قوقعتهم، على الهشاشة التي في الداخل، دونما ضغوط أو مطالب. أنا أستطيع أن أفعل ذلك جيدًا، ففي النهاية لا سبيل لمعرفة أي شخص مهما توهمنا عكس ذلك. بل إن الفعل الجنسي في حد ذاته هو تعضيد لذلك الحائط الذي يفصلنا كلًا عن الآخر. هو كممارسة العمى، حيث الخوف من التفاعل الحقيقي، أو استحالته، يدفع بنا إلى تنميط من نقابلهم، إلى خلق منظومة مكرورة، من التعامل الذي يتكفل الجسد خلاله بأداء المهمة بينما القلب يقبع وراء الحائط الصلب دون أن يمسه شيء. أنا لا أراهم إذن، وهم لا يرونني، في العمى تراتب ما، أو علاقة شرطية اطرادية، فربما لو سمحت لنفسي برؤيتهم لرؤوا هم جزءًا مني، والعكس ربما صحيح أيضًا. شيء ما في فعل الرؤية يعطي وجودًا للمرئي، ومن ثم يوحي إليه بأنه هو أيضًا يستطيع أن يرى، أن يتعرف. وأنت لا يمكنك أن ترى إلا ما يستطيع بدوره - ولو بعد حين - أن يراك. لذلك فكلانا يغمض عينيه، يغمض روحه، ومع تصاعد اللذة يتكثف حائط العمى، وتتلاشى أية ثغرة ممكنة للشفافية.

قالت لي امرأة ظريفة، ذات مرة، إن جسدها هو مفتاحها للحرية، إنها تسعى لأن تمتلك نفس الحرية التي أملكها مع جسدي. كانت تعتقد أن الجسد سوف يفتح لها دهاليز المعرفة، سوف يقودها نحو التحقق. وفي الواقع إنني أحبطتها، هي التي جاءت إلى لكي أكون مرشدتها. قلت لها إن الجسد لا يمكنه أن

يكون مفتاحًا للحرية، لأنه هو بالضبط ما ينبغي التحرر منه، ولا معرفة حقيقية إلا تلك التي تتجاوز عتبات الجسد. ولما امتعضت مني وأفصحت أنها تعتقد أنني مجرد عاهرة تطمح لإثبات أن لها عقلًا، رددتُ عليها ببساطة أن تلك هي حال كل النساء، فكلهن يطمحن لإثبات أن لهن عقلًا، لكنني أدركتُ أنها سريعًا سوف تظن أنني أتملص من المهمة بعد أن قبضت الثمن مقدمًا، ومن هنا فقد منحتها ما جاءت من أجله حقًّا، متعة استثنائية محرمة، أو ذلك الذي تطلق عليه "دهاليز المعرفة" من باب نفاق الذات لا أكثر. في ذلك، لا فارق بين رجل وامرأة.

***

على إحدى نواصي إحدى العواصم المزدحمة، وقفت أتأمل العابرين. شيء شبه مثير أن تتفرج على الناس وتقرأ خطواتهم فتعرف تواريخهم لوهلة. شيء بسيط وعظيم في آن، ومثير لأولئك الذين يأملون في الانتماء للجماعة. لو كانت هناك ذاكرة جمعية فهي بالتأكيد ذاكرة الفرجة، وليست ذاكرة الفعل كما يحلو لكثيرين أن يعتقدوا. تفرجتُ إذن، مارست انتمائي للشارع، كانت الصورة متحركة وأنا العنصر الوحيد الثابت فيها إلى أن لمحتُ قريني، نقطة مقابلة ثابتة، جسد وقف فجأة دون حراك، كانت امرأة تشبهني لكنها كانت مأزومة، تصارع كي تتحرك من جديد، كي تسير. رأيتها تحاول أن تزيح قدمًا بأخرى، تحاول أن تكور

قبضتيها لتستجمع طاقة تقودها إلى الأمام. رأيت وجهها يتقلص، ملامحها كلها بدت مشوهة من جراء المحاولة، أو ربما من ألم الفشل، شاهدتها ولم يخطر ببالي للحظة أن أتقدم لمساعدتها. كنت مؤمنة بأن لكل شخص منا مداره الخاص. لكني رأيتها ملء عيني، ولم ترني هي، على عكس ما كنت أظن. أو في غالب الأمر أنها لم ترني. ظلت تحاول معتقدة أن ساقها قد تخلت عنها. عندئذ انهارت الساق الأخرى، وسقطت المرأة أرضًا. لم يلحظ وجودها المارة، فقط أنا رأيتها. ولم تثر أية شفقة بداخلي فقد كانت تعانى بوضوح من الغباء. ظلت ملقاة هكذا على حافة الطوار، إما بانتظار نجدة ما أو بانتظار استيقاظ جسدها، كان هذا تحديدًا هو مظهر غبائها. فلم يكن هناك من سوف ينجدها، ليس لأن أحدًا لم يلحظها، إنما لأن الآخر غير موجود أصلًا، لا سيما في تلك الظروف، هم أشباح عابرة فحسب. أما استيقاظ الجسد فبدا لي وهمًا أكبر، ذلك أنه مستيقظ بالفعل، في كامل انتباهه ولياقته، هو جسد حاضر، قادر على الفعل، التصلب في ذاته فعل، تمرد، حركة لمن يستطيع أن يقرأها. لكنها لم تكن تفهم حتى جسدها. بدت لي كامرأة، محور وجودها هو جسدها، ذلك الذي يفرض إرادته وتظنه هي أنه عاجز. عرفت ذلك لتوي، أنا التي اخترت بوعي أن أنحي جسدي لأجل الروح بينما يعتقد الجميع أنني امرأة الجسد والشهوة، لكني لذلك تحديدًا أدركت الحياة التي يفيض بها جسدها. أحيانًا نتعرف إلى الآخرين بالتباين الذي بيننا.

كانت هي مستغرقة في الألم، أو - في الحقيقة - في مصارعة الألم، فلم تدرك أنه مونولوج جسدها يحاول به أن يخبرها أنه حي وفعّال. بدت كأنها غريبة عنه، لا تتحدث لغته، لا تعرف حتى الإنصات. وكان ذلك هو الخلل الحقيقي. ظلت تعانده ويعاندها. قامت بسلسلة من الحركات الغريبة، كأنها تدربت عليها من قبل، لكي تنهض، لكي تشارك في الصورة المتحركة - الصماء - للشارع، لكنها فشلت مجددًا. لا أنكر أنني كنت أضحك في خبث، ودونما إحساس بالذنب، ولم يلحظني أحد.

شيء يدعو إلى الحكمة، أن نخطئ التأويل، فنخلط بين الموت والحياة. ربما لو كانت قرأت جسدها بحق، لكانت أدركت رسالته، لكنها كانت القطيعة ولا شيء غيرها. أما الروح - الجسد الوحيد الممكن للاكتمال - فقد كانت هي الميتة حقًا. كان هذا هو جوهر الغباء بعينه.

***

استلقيتُ على ظهري مجددًا فهذا وضع مفضل لدي. وأتت المرأة الغبية. بقوة رغبتي فيها. بقوة رغبتي في إيقاظها. أتت من حافة الطوار إلى غرفتي مباشرة. وقفت هناك أمام الفراش، وتفحصتني. كانت قد أدركت أنني الوحيدة التي رأتها. لا أعرف متى بالضبط ولا كيف حدث هذا الإدراك، لكنها بمجرد أن رأتني، اكتملت الرؤية وحدث التعرف.

نظرت إلىّ. إلى جسدي العاري المسجى أمامها. لا أعرف كيف أبدعت نظرتها لي جسدًا. استيقظ لحمي وتواصل مع النظرة. مجرد النظر قد يكون فعل محبة، فعل إحياء وتواصل. أصبح لي ثديان متكوران، وبطن أملس، وعضو أنثوي منتبه. أجل، بين هذين الفخذين كانت ترقد الأنثى، تلك التي لم توجد من قبل. ***لم أعرف إن كانت هي التي تنظر إلىّ، أم هي أنا التي تنظر إلى نفسي.*** *دعوتها دون أن أنبس بكلمة، دون أن أحرك ساكنًا، وجاءت. وضعت يدها على القلب، وتسمرت طويلًا. شعرت بيدها، بالملمس وبالضغطة*

الخفيفة. استشعرت الحرارة، طاقة التعرف، والملمس الدافئ الودود. عندما تواصلتُ مع الكف، شعرتُ بدقات قلب، كان هو قلبي الذي يدق، لكني لم أكن لأدركه إلا من خلال كفها. أم أنها **كانت دقات كفها، نبض وجودها؟** لأول مرة بدأت أتنفس، وكان لتنفسي رائحة عبيرها. أغمضت عيني واستمررتُ في الاستسلام.

باعدت بين أصابعها لكي تحتوى الثدي. أخذته داخل راحة كفها وأغلقت عليه. وتوقفت مجددًا. شعرتُ فجاة بانني انثى، بان لي جسدًا أخرسته منذ زمن طويل. والثدي الذي كان حينئذٍ في كفها، كان هو أنا. أحسستُ انني على وشك أن أتأوه، لكني لم أفعل. اكتفيت بالتنفس، واختفت من رأسي أية سيناريوهات مسبقة لليلة. عندها نظرت في عيني، نظرة مباشرة، لا حواجز فيها، لا حوائط ولا أحجبة. كأنما كانت تقول **"أنت أنا"** شيء ما في كياني تحرك وابتسمتُ. بدت كامرأة في كامل صحتها وحيويتها، ابتسمت بدورها، بسطتُ قبضتها، وانزلقت كفها إلى الضلوع، واحدًا واحدًا، ثم إلى البطن، إلى الصرة، وتوقفت هناك. كان باطن كفها يلمس صُرتي مباشرة، كأنما يكمل الفجوة، ويوصل الحبل السري الذي انقطع. شعرت بنبضها، بتنفسها في كفها. النفس الذي كان يخرج منها كان يصل مباشرة إلى البطن، أتنفسه مجددًا، أعانقه لكي أكتمل. كأن صُرتي هي رئتي، ونفسُها هو روحها. في هذا الأوكسجين المشترك كان يكمن شبق أسطوري، شهوة في الاكتمال.

كانت يدها ملساء، كأنها سطح آخر لبطني. خفيفة، حنون كيد معالج الشامان. كانت عيناي قد غابتا، تخدرتا من جراء تلك الكيمياء. لكنني كنت أراها مليًا. صُرتي كانت عين حادة الرؤية، ويدها كانت بوابة جسدها. تحركت أصابعها حثيثًا كأنما تملس على روحي أسفل بطني، ثم انفجرت الأصابع مرة أخرى وقبضت على اللحم. اعتصرته كأنها تعانقه دون مواربة، دون لغة، بل في عنفوان من يعرف أن تلك أرضه، ومعشوقته. تأوهت على استحياء فقد أحسست للتو أن لي رحمًا، أن بداخل جسدي حياةً، ***هي حياتي أنا.*** *ثم تركت اللحم يفلت من قبضتها، انفرجت أصابعها ومضت وئيدة إلى أسفل. تحسست الزغب والفخذين من الداخل، لمست العضو لكنها لم تتوقف عنده. استمرت أصابعها في التحسس والاكتشاف، في إيقاظ الجسد. تجمع الدم بين فخذي. شعرت للمرة الأولى أن بجسدي دمًا ساخنًا يكاد يتفجر أنوثة.* ***لم تعد الخطوط الطولية تعنيني، ولا خارطة جسدي المتجلط التي صارت تجسد جغرافيا عتيقة. اختفت القضبان في لمحة والتأمت كل الشقوق. راحت تحدث دوائر صغيرة بأصابعها هناك، ببطء الظلام، كمن يتحسس الروح، يناديها كي تعود إلى الجسد. لم تكن هناك كلمات ولا قُبل كالعادة، ومع ذلك كان هناك اكتمال. استمرت الدوائر، فجأة نبضت الروح في الجسم، تفجرت على أطراف أصابعها وغرقتُ في لذة لم أعرفها من قبل. استغرقتُ في وجود يفوق الغياب عن الوعي.***

ربما إنني تلاشيت تقريبًا. غير أن يدي التي امتدت لتقبض على يدها، كانت تثبت أنني موجودة، وبقوة، موجودة ككائن مزدوج، كجسد اجتمعت يداه سويًا للمرة الأولى، ولمستا جوهر الحياة.

أصبح لي جسد إذن، أصبحت امرأة، وظلت روحها تخاطبني وهي واقفة - بلا حراك - تتواصل معي بإشارات وجودية نادرة لم تعرف هي أصلًا أنها ممكنة. أدركتِ الغبية أن لها روحًا قادرة على إيقاظ الجسد - جسدي - ومن ثم قادرة على التواصل مع عجزها المصطنع، مع عجزها عن فهم لغة جسدها. كان أن حركت جسدي الغائب، والذي - بدوره - أرشدها إلى حضور جسدها، فقط لو تواصلت معه من خلال الروح، ذلك الابتكار الذي لم تفطن له من قبل.

استلقت فوقي. وتماهى الجسدان، الروحان. كان أن تبادلنا الأماكن، مواطن العجز والقوة، وأشكال الاكتمال. كأنما أعطيتها روحي التي كانت ملكها من الأساس، وأخذت جسدها العنيد اليقظ، لكي نخلق امرأة واحدة بروح وجسد مكتملين. هكذا تطابقت تمامًا المرآة مع الأصل مع الصورة، للمرة الأولى، لم يعد هناك فقد أو افتقاد أو غياب، وقتل الموت أو تجميد الوقت لم يعد همًا أساسيًا تتوقف عليه الأشياء.

***

رأيت جسدها من الداخل إذن. كان كالغابة السوداء، فجوات كثيرة والتواءات وكدمات ورضوض وتمزقات. كان الأعضاء قد خُلعت خلعًا عشوائيًا من مكانها، وظلت ملقاة هناك دون رباط يجمعها، أو يهديها إلى نظامها الصحيح. كان في هذا التكوين قوة هادرة. فكله كان صامدًا، مُصرًّا على الوجود، على المقاومة، فكيف يمكن أن تهدد جسدًا تخلع بالكامل من الداخل، وتجاوز ذلك واستمر؟ لا بد ألا سبيل إلى تدميره حقًا لا بد أن له نظامًا آخر غير ذلك الذي نعرفه. كانت هناك الفقرات المتآكلة، ومخالب الوحش الأسطوري، أو فكه، كان هناك الحبل المقطوع الذي لم تستطع أن تشنق به نفسها. لكن كلها بدت كأطلال لحفريات قديمة، تُركت هناك للذكرى فحسب، أما وجعها، أزمتها، فلا شك أنه قد تسلل من بين شقوق الجروح الطويلة التي حُفرت في جسدي من أجل ذلك. تسلل ذلك التاريخ الميت من بوابات جسدي، لكي يشف تدريجيًا عن أنا / هي الجديدة، وتختفي الجروح. يعود اللحم كلًا واحدًا.

أستطيع أن ألمح أن صوتي الغريب، أو الدخيل، قد تغير في هذه الصفحات القليلة. لا بد أن يتبدل شيء بتجربة الحلول، تجربة الرؤية من الداخل. أستطيع أن أسمع نبرة أنثوية في طيات الحروف. في طيات الحروف تلك معالم جسدي الجديد الذي ولد بكبرياء لكي يتفتح ويصير أرضية صلبة لوحدته المستمرة مع الروح. لكن هل يعنى ذلك أنه لم يعد هو القيد الذي ينبغي التحرر منه؟ يبدو لي

أنه لم يكن أبدًا القيد، كان القيد فيما أسقطنا عليه، فيما صنعنا منه ليشكل لنا قيدًا. أما الجسد في ذاته فحُر. نحن الذين نصنع أصنامًا ثم نرجمها، ولو لم نصنعها لرجمنا أنفسنا حتى الموت. وأنا التي كانت تظن أنها تقاوم الموت، أنها تجمد الزمن، كانت في الحقيقة قد رجمت أصنامًا حتى أهلكتها، فراحت تجلد نفسها كل يوم دون أن تعرف. كان رجالها ونساؤها هم جروحها الطويلة، شقوق متوازية بنفس أعدادهم، كلها متجهة صوب الموت. شواهد قبور قصيرة نحيلة لامرأة عاندتها روحها.

لن أقول إن هذا الزمن قد انتهى، لكنه على الأقل يبدو لي تاريخًا قديمًا. وأعرف أن مداواة أضراره سوف تدوم طويلًا. وأعرف أننا معًا قادرتان على ذلك.

الآن أفتح ذراعي، أمد عنقي طويلًا، أباعد بين الضلوع، أملأ الرئتين شهيقًا نظيفًا، ثم أتحسس البطن موطن الرحم، أصابعي حنونة، وساقاي مفرودتان، مصوبتان إلى الهواء. أبتسم بينما عظمتا الحوض تعتدلان، وتنهض هي. تخرج.

***

كيف يمكنني أن أصف ذلك؟ أنا التي لم تتعود أبدًا على الوصف، على الكلام. كيف أصف وجودي بالكلمات بعد أن أنابت عني الراوية طويلًا وخففت عني عبء المحاولة؟ أن تأتيك الفرصة

للمرة الأولى دون إنذار، فهذا شيء يلغي أية مساحة للاستعداد، لتحضير الكلام. لكنني أستطيع ببساطة أن أقول إنني هنا الآن.

قبل الموت بلحظة واحدة، رأتني هي، فسمحت لي بأن أرى بابًا إلى الحياة. ربما إنها كانت المرة الأولى التي أمكنني فيها أن أرى، أن أكون. أنا عادة لا أعرف سوى لغة الحركة، لغة التصميمات، والوجود يحدث بقوة ضربة قدميك للأرض، بقوة دورانك وقفزك عاليًا، تلك اللغة إذن غريبة عليّ، لكنني أتعلمها، أتعلم التواصل من جديد بها. لأعبِّر عني أيضًا، عن جسدي القديم والجديد، المتحول، من خلال لغة لا تملك سبيلًا إلى فيزيقيته، للأسف.

مثلما لم تعرف قرينتي أن لها روحًا هي التي تدفعها إلى المضي، لم أعرف أنا أن لي جسدًا، وأن عجزه كان هو قمة ثورته. نحن عادة ما نخجل من أجسامنا، نحاول أن نداريها بكل الحيل العصرية والبدائية الممكنة، نحاول أن ننكر وجودها، أو نتنصل منها. وأنا مثلنا، أخفيت جسدي وراء حركاته، جعلته أداة عرض، فصلته عني وانتظرت مفتاح السيطرة. جسدي كان يحمل عارًا ما، أما أنا فقد كنت نقية، مباشرة. لم أرتكب خطيئة، لم أقع في فخ رجل، لم أستسلم للحب. خبأت نفسي في قاعة التدريبات أو ساحة العرض. تحولت إلى شخوصي المسرحية وعرفت الحياة من خلال تجاربها الوهمية، التمثيلية. لم يكن هناك ذنب إذن،

ومع ذلك هناك عار تاريخي بمجرد الوجود. أجل، صحيحٌ أيضًا أن نقول إننا نخاف من أجسادنا، وإنني لكي أتلافى ذلك اغتربت عنه، لكنه ظل حيًا، يتعلم من التجارب التمثيلية وينضج ويقوى، ويعاندني. ذهب كل منا في اتجاهٍ معاكس. وهكذا نشأت سلسلة من الإصابات المتتالية، الركبة التي خُلعت من مكانها لأن الجسد يريد الذهاب يسارًا وأنا أجبره على الدوران إلى اليمين، أجبره وأجبره ولا أملك السيطرة عليه، وفي جزء من الثانية انفصلت الركبة عن الجسد، انخلعت، وبرزت كنتوء مخيف في جانب الساق، بينما محلها فراغ، محلها بشرة مستوية تمامًا بلا تكور. في تلك اللحظة، أصابني هلع، لم أكن أعرف أن ذلك وارد الحدوث، كيف أنظر إلى ساقي بلا ركبة؟ بل كيف أرى الركبة في مكان من جانب الساق هكذا كان أجزاء الجسد يجوز لها التجوال الحر؟ حدث ذلك منذ أعوام عديدة، وبعده تمزق الوتر الأخيلي، والتوى الكاحل مرارًا وتكرارًا، ثم خُلعت الركبة الأخرى، وبعدها ضلعان، ثم الفقرتان الرابعة والخامسة! تهت في هذه الكوميديا السوداء لجسد يصرخ ويعاقب صاحبه بأكثر الأشكال فانتازية، لكنني لم أفهم، لم أتوقف لأفهم، غبية. بدا لي دومًا أن لا وقت هنالك، أنه ينبغي الإسراع قبل أن يتشوه الجسم بالكامل، لكن الإسراع نفسه كان هو الذي يمزقه، أو على الأقل يستفزه للمبالغة سريعًا في التداعي والانتحار.

مضيت مسرعة إذن، كان هناك الكثير الذي يجب فعله قبل الموت. كانت هناك عروض كثيرة ومهرجانات وشخصيات أريد أن أنجزها. كانت البؤرة دومًا في الخارج، في القائمة الطويلة التي يعارضها الوقت. ولم أفطن أبدًا أن سندي الوحيد، حليفي الأخير، كان هو الجسد. ظننت كثيرًا أن هذا اختبار لقوة التحمل، أنها فترة وستمر، أن الإصابات المتكررة هي ناموس حياة كل الراقصين، والألم هو قانونهم الوحيد. لكن تلك المقولات جميعها لم تكن هي تحديدًا الوصف الدقيق لحالتي. كنتُ قد اتخذت مكاني في صف طويل من الناس الذين يفضلون الجهل السعيد على الحقيقة المؤلمة، إيمانًا على الأقل بأن هناك سعادة ما ممكنة. أغمضتُ عيني لكي أستطيع المضي إلى الأمام بأسرع طريقة ممكنة، حتى لو كان في هذه السرعة موتي الحقيقي. في هذا الإطار من الكوريوجرافيا المحكمة، يصعب على المرء أن يرى الأشياء من الخارج، هو مدفوع بقوة فولاذية للتحقق الذي يرادف - في الأغلب - الإجهاز على الذات، أو الاحتراق الذاتي.

استندتُ إلى الساق اليسرى، نقلتُ الوزن إليها، تنفستُ بعمق، وضعتُ الكف على أسفل الظهر، استخدمت عضلات البطن، لكن الخطوة الحقيقية لم تأت، لم تكتمل. وكنت قد خلتها قريبة للغاية. في ذلك ضغط على الجسد، تعذبت له، فهل حصلت به على السعادة الواهمة؟ تماديتُ حتى تخدرتُ، حتى شللت، وحينئذ أدركت أن

شيئًا ما خطأ. أذكر أنني حاولت تجاهل هذا الإدراك نفسه، أنني حاولت إيهامي بأن كل شيء على ما يرام وفي لحظة يمكن السير من جديد، يمكن معاودة الحياة. دفعت نفسي دفعًا من الفراش، تحملت، ارتديت قناع الخروج. استخدمت مهاراتي التمثيلية في مواجهة البشر: ابتسامة مرغمة، ثرثرة زائفة، إخراس لصوت الألم، تظاهر بالخفة وسهولة الحركة. وربما أنني نجحت في تمثيليتي الصغيرة فخدعتهم، لكنني لم أبعد الحقيقة ولو سنتيميرًا واحدًا. بدلًا من ذلك، ضاعفت من التناقض بين الداخل والخارج، بين جسدي وقناع حياتي اليومية المصطنعة. اتسع الشقاق. كثيرًا ما كنت أخاف، أفزع من القادم، فأقول إنه ربما عقاب على جرم شنيع ارتكبته في حياة سابقة. أفتش وأفتش فلا أعثر عليه، وأقول إنني مجرمة إلى درجة يستحيل معها كشف الجرم.

أنا ما زلت لا أعرف تحديدًا أين يكمن موطن الخطأ، لكنني أرفض ان أتعذب أكثر من ذلك. أبحث عن الحقيقة المؤلمة، تلك التي ربما تضمن لي النجاة بدلًا من السعادة الوهمية المؤقتة. أبحث عن التعري حتى لو كانت فيه إهانتي. أسحب نفسي من الفراش مجددًا. وأصل إلى الشارع. ربما ذلك استغرق أيامًا، أو شهورًا، أو أعوامًا، لكنني أصل. أصل وأناطح العجز، أناطح ثبات زمني في صورة تتوقف ديمومتها. وربما في ديمومتها الصارخة انتحار أخرس لعناصرها. لكنني لذلك لا أخجل من عجزي، من

عاهتي التي قد تفصح عن نفسها في أية لحظة، والتي تتلذذ تحديدًا بإمكان مفاجاتي في أية لحظة. وأنا أريد أن أصارعها.

وبالتالي يحدث أن تتجمد الخطوة. وبالتالي يحدث أن يستحيل إقناع الساق اليمنى بالشعور والاستجابة. وبالتالي يحدث أن تنقبض عضلات الظهر وتضحك الفقرات المخلوعة في نشوة المنتصر الأولى. لكن يحدث أيضًا أن تراني هي، المرأة التي يجوز لنا - بكل معنى الكلمة - أن نربطها بالعار، وبالذنب التاريخي الصريح لكنها تراني، تدعوني بنظرتها. فأتعلم من جديد أنه يمكن النظر إليّ، يمكن رؤيتي، يمكن إدراكي بالنظر. ونتعكز كل على الأخرى، إلى أن نكتشف أنه يمكن محو العار، محو الألم، والذنب. لنكتشف أننا مكتملتان ولا حاجة بنا لعكاز، لأن في توحدنا حضورًا للساقين اللتين يمكنهما أن تخطوا سويًا بنفس القوة. نمارس الحب إذن، نمارس العشق والوجود. أقف لساعات أو أيام أو شهور، وأنا أعانق جسدها. تستلقي هي على ظهرها كأنها أنا العاجزة، أما أنا فأقف طويلًا دون وجع. أقف ويقوى جسدي بها. أتحسسها وأفهم أن في ثبات الجسد حركةً وحياةً، أن في ثباته تفجرًا باللذة وبالحياة. أتحسسها وأعرف مفاتيح جسدي للمرة الأولى. أعرف أن لي أعضاء وأنوثة، أعرف أن ملمسها في يدي يوقظ لي يدًا وجسدًا، كأنه يلمس نفسه، يعيد تشكيله، ويخلق له مدارات من نقطة الصفر.

لا أعرف إن كانت هي التي تأوهت أم أنا، لا أعرف إن كانت هي التي تلاشت أم أنا، لكن سريعًا صار لكلتينا وجود غير مسبوق قبل تلك اللحظة. وفجاة لم أعد بحاجة لأية تصميمات حركية للسير أو لمداراة الألم، بدت الحياة أكثر سلاسة عن ذي قبل، اختفى شيء ما كنت أناطحه باستمرار، بغباء، وحل محله سلام داخلي. كان في ذلك شيء يشبه الولادة، يشبه الحياة التي تندفع من الجسد التائه قبل الموت بلحظات.

يقولون إن في ذلك اختبارًا للإيمان، ويقولون أيضًا إنه امتحان لقوة البقاء، ويمكنني أن أقول إنه اختبار لقوة الإيمان بالبقاء. وبالرغم من ذلك فالتفسيرات لم تعد تعنيني، ولم يعد يعنيني البحث في الأسباب، يعنيني فقط أنه يمكن الحياة، وأن الجسد وحركته كل واحد، وأن أنا وهي صرنا امرأة واحدة، وشفا الجزء الأخير من الجملة على الدرجة نفسها من الأهمية: امرأة، وواحدة. يا للفرح، ذلك شيء يدعو فعلًا إلى الرقص.

***

سوف أكتب إذن، سوف أمارس ذلك الفعل المكرور، غير أنني لم أعد أملك الآن سوى صوتي. اضطلعت كل من المرآتين بنصها، ولم يعد بإمكاني أن أكون راوية إحديهما، لم يعد بإمكاني أن أتخفى وراء حكايات الآخرين، أو أن أؤجل كتابتي. لكني أعرف مسبقًا أنها لن تفلت من التكرار، ومع ذلك أقدم عليها، أتصور أن التكرار قدر وليس إخفاقًا. أنا أكرر نفسي حتى أعرفها أكثر، أنا أردد صوتي في مرايا عديدة حتى أفهمني في عمقي. أنا أسرد القصة ذاتها بطرق ووسائط متنوعة لكي أصل إلى المعنى، أقبض عليه. ولا شيء يمكن أن تعرفه من مرة واحدة، ومع ذلك فالشيء عندما يتكرر لا يصبح هو نفسه الذي كان من قبل. يتحول قليلًا لكننا نستسهل ونسميه تكرارًا، وسخيفًا. أنا ألهث إذن للحاق بتلك التحولات، أو لدفعها كي تتحقق. أحيانًا أدفعها بالكتابة، وأحيانًا تدفعني هي للكتابة فتكون كتابتي هي تحوّلي، فأسعى مجددًا إلى فهمها بالكتابة عنها، بالكتابة عن الكتابة السابقة عليها. ألهث أنا وكتابتي إذن إلى مواكبة التكرار، التحول، ونأمل في غباء - أحيانًا - أن نثبّت اللحظة لأن لنا

ذهنًا بطيئًا يود لو وضع التحول أمامه كصورة جامدة كي يستطيع أن يتفهمها بلا عناء. وأحيانًا أيضًا يُخيل إلينا أننا نجحنا فيما نأمل فيه، ربما عندما نتمكن من صناعة فاصل من السرد لا يحدث فيه شيء، فقط بورتريه للحظة يمكن النظر إليها من جهات عديدة. وأتساءل: هل يحدث فعلًا ألا يحدث شيء؟

أنا عاجزة عن الإفلات من عقلي، عاجزة عن الوجود خارجه، أو حتى الوجود معه. ينطلق خطابي الذهني كقطار سريع فولاذي، يكسر حاجز الضوء كي يصل إلى مجرات أخرى. يكسر حاجز الضوء حقًا، فيصيبني حينئذٍ بالعمى. لكني منذ بدأت هذا الفاصل، أشعر أنني أبطأ كثيرًا عما عهدت، لم أكن أعرف أنه يمكنني أن أكون بهذا البطء في الكتابة، في التفكير، لكنه حدث مدهش أن تعرف أشياء عن نفسك لم تكن تتوقعها، أنت الذي تظن أن لا شيء تعرفه سوى مقولاتك الفلسفية عن أن العالم كله متوقع، أن الأشياء كلها قد حدثت، حتى ما لم يحدث بعد فقد حدث أيضًا، وأن العدمية هي الخيار الوحيد. شيء مثير للشفقة أيضًا أن تتعرى - مثلي الآن - من درعك، من عدميتك، أو يقينك من أنه لا سعادة ممكنة، ولا حتى سعادة تحقق الحلم الذي يفقد معناه ووجوده بتحققه.

من الممكن إذن أن تحدث كتابة لا أعرفها، لم أخطط لها، ولو بدا ذلك كأنه خيانة لدستوري، لنمط كتابتي، إلا أنه ليس بوسعي إلا

الكتابة. أنا لم أعرف وجودًا خارج الورق، خارج الحروف، لم يكن جسدي أبدًا أداة عرض ولم أكن حتى الأنثى التي تتحقق باكتمالها مع رجل. لم تكن قضيتي أن يشاهدني الآخرون دون أن يكتشفوا حقيقة ما يدور بداخلي، ولم أشكُ أبدًا من أن أحدًا لا يلحظني مثلًا كأن كلينا يدور في مدار مسمط. في الحقيقة إنني كنت مغلقة على ذاتي في معظم الأحيان، وسواء رآني الناس أم لم يفعلوا، كان ذلك سيان بالنسبة لي، لم أكن أرى فارقًا. والشيء الوحيد الذي شكل هويتي هو الكتابة، فهي التي تستطيع تحويل التجارب إلى حقائق، إلى فرص للتعلم، إلى هيكل للتحول. كان من الممكن أن يذهب كل شيء أدراج الرياح، أن تتبدل الحقيقة بالوهم، أن تُخلَط الأوراق، لكني خلقت هذا السجل من الوقائع المكتوبة التي يمكنني الاستناد إليها فيما بعد، وتصور حياتي بشيء من المنطق، منطقي الخاص ربما، لكنني أقول ذلك أيضًا لكي أثبت أنه من الخطأ أن نظن أن جميع النساء يطمحن إلى إثبات أن لهن عقلًا، فهناك منهن من يطمحن إلى العكس بالضبط، أي إلى نفيه، كأنه يبدو لهن أن في ذلك حرية ما لا يعرفنها بعد.

بهذه الكتابة الصعبة، أو التي تصعب تدريجيًا كلما تقدمنا، إلى درجة ربما تجعل قراءتها مستحيلة، أحاول أن أرأب الصدع، الصدع الذي بيني وبين المرأتين، والصدع الذي في هذا النص كله.

فهذا نص مليء بالشقوق والتكسر، وأنا سوف أحاول أن أجمعه، أن أجمع جسد إيزيس التي تناثرت وهى تجمع أجساد الآخرين، لأننا لا نستطيع أن نخلق كلًا من شيء ما إلا إذا أعطيناه جزءًا منا، لا يمكننا أن نكوّن ذلك الكيان الخارجي المكتمل إلا إذا نقصنا، لكنني على الأقل سوف أحاول، فالنص هذا، هو جسدي في النهاية، ليس بأي معنى مجازي متوقع، ولكن بمعنى أن تلك الكتابة سوف تخلق لي وجودًا. وبمعنى آخر خبيث أيضًا.

***

منذ بضعة أعوام، وبينما كنت في منحة للكتابة في قرية أوروبية هادئة، قابلت شاعرًا مكسيكيًا كان هناك للغرض نفسه. كان فارع الطول، وضخمًا جدًا، في منتصف الأربعينات من عمره، لكنه لم يكن اجتماعيًا بالمرة، لم يكن يتقن الحديث مع أحد، أو لم يكن راغبًا فيه من الأساس، لكن عيوننا التقت ذات مرة، ورأيته من الداخل، مصادفة، مجرد طفل كبير، مفزوع وغارق في اليأس. أنا أيضًا كنت أعرف ما هو الفزع واليأس، لكنني كنت أقاوم. هُيئ إلى أن هرمونات الأنوثة في جسدي، أن قدرتي على الحبل والإنجاب، هى ما يدفعني بحق إلى الحياة، وإلى - ربما - محاولة انتشال من هم مثل صديقي هذا. ربما أنه رأى فيّ أمًّا أو طوق نجاة ما.

كان صامتًا دومًا فيما عدا المرات التي تحدثنا فيها سويًا. في

بعض تلك المرات كان يبتسم، بل يضحك، كان يتحول أكثر إلى طفل حينئذٍ، يتسق مع ما بداخله، وينفى جسده عنه. لكن اليأس كان عميقًا أبعد من الجسد. بطريقة ما، تمنيت أن تنتهي المنحة سريعًا لأنني لم أكن أعرف كيف أتعامل مع صديقي لو طالت المدة أكثر. لكنه كان يكتب شعرًا جميلًا، مليئًا بالحب ومتجاوزًا لأشياء كثيرة، كأنه صوفي ما، لقد كان غارقًا في الحب، وفي الانفصال واليأس. رحل عنه الحبيب فجأة، بعد سبعة عشر عامًا، دون أن يذرف دمعة واحدة، تركه مهدمًا، ومعه أكوام من الشعر.

اعترض طريقي في المطبخ بينما كنت أغسل الأكواب ومطفأة السجائر قبل الذهاب إلى غرفتي، طقس يومي لكل الكتّاب المقيمين في البيت، لكنه لم يكن يتبع أيًّا من تلك الطقوس. اضطربت قليلًا، ثم رأيت خليطًا من البهجة والسلام والحزن في عينيه. وضعت كفى على خده مسائلة عما به. لم يقل شيئًا سوى أنه كان يظن أن هناك وسيلة لإبعاد الحزن، لكنه كان مخطئًا، ثم أضاف بابتسامة طفولية، كأنه يتشبث بشيء ما أو يودعه: "... وأنك جميلة، وإنني فهمت الآن أنني جئت إلى هذا البيت لكي أجد أحدًا أودعه.. أنت". تجمعت بعض الدموع في عيني، أما هو فكانت نظرته ثابتة، نافذة. وبالطبع احتضنته بمجهود كبير وَحتى أستطيع أن أصل إلى كتفيه ووجهه - وأكدتُ له أننا سوف نتقابل مرة أخرى.

سافر هو في الصباح، دون أن يراه أحد. وبعد أسبوعين جاء خبر انتحاره. عندئذٍ سالت الدموع التي كانت قد تجمعت من قبل. الحب هو بداية الطريق نحو الموت. هو الانتحار البطيء بعينه.

لم يقتله حبيبه ذو القلب الميت، ولا قتلته أنا عندما تجاهلت عينيه وهما تقولان "أرجوك أن تحبيني". وإنما قتله الحب. وأنا لا أريد أبدًا أن أدفع بنفسي نحو الهاوية. بل أريد أن أدفعها عني. لذلك فأنا أستمر في الترحال، في المغادرة، في الابتعاد عن الوطن المليء بفخاخ سوف تقودني بالتأكيد نحو الهاوية، فخاخ أعرف أنه من السهل أن نعشقها لكنني لم أكن أبدًا مازوخية. أبتعد عنه إذن، وعن كل شيء يؤدى إلى الارتباط العاطفي، سواء بشخص أو بمكان أو بفعل. وعقلي منتبه، يحميني، يساعدني - بالكتابة - على أن أنحي أكوامًا من الخطر، على أن أنحي التاريخ وأستمر في الانتقال.

الآن تحديدًا تزداد الكتابة صعوبة، لأنها كتابة تتخلق في الذهن منذ أعوام طوال، هي بالضبط ما حاولت مرارًا أن أقمعه، أن أقاومه، ليس لكي أختبر جدارته، إنما لأنه يفتح بابًا لن أعرف كيف أغلقه. كيف إذن أستمر في شيء أعرف أنني لن أستطيع إنهاءه، لن تكون لي سيطرة كاملة عليه، لكنني غير قادرة على التوقف، أو على تعديل المسار، فقد انفتح الباب بالفعل، ويجب الاستمرار.

***

"الحقائب كثيرة للغاية، بأحجام وأشكالٍ مختلفة، تملأ حجرتي. أنا أستعد للسفر بهمة، لكنني لا أبدو سعيدة، أبدو مهمومة بالعدد اللانهائي للحقائب، وبوزنها. بالتأكيد لن تسمح لي شركة الطيران بحمل كل ذلك على الطائرة، لكن ما العمل؟ أنا لا أستطيع أن أتخلى عن أية واحدة منها، ولا يمكنني أن أدمج اثنتين أو ثلاثة في واحدة، لا يمكنني أيضًا أن أفتح الحقائب وأخفف مما بداخلها، أعتقد أنني أخاف حتى من فتحها، أخاف مما سوف أعثر عليه، لا سيما وقد بذلت مجهودًا "مضاعفًا" في إغلاقها. أقف هناك كالتائهة، ربما لأنه لا يمكنني من الأصل أن أتعرف حقائبي، أو ربما لأنني كمسافر اختفى زملاء رحلته من حوله، وتركوه في صالة المطار بجانب عدد هائل من الحقائب التي لم يأخذها أحد، ولم يتعرفها هو نفسه، لكنه تورط فيها. لكن الحقائب تلك التي في حجرتي عزيزة عليَّ للغاية، بالرغم من رغبتي في عدم فتحها، إلا أنني مصرة على حملها جميعًا وإلا فلا سفر. بالنسبة لكثيرين فالسفر هو تخفف في ذاته، تخفف من وطأة المكان الواحد، من العادات، من الذكريات القريبة اليومية، من المعرفة المعتادة: أما سفري فهو صراع لحمل كل ذلك معي، للانتقال به، بالرغم من أنه أحيانًا ما يقاوم الانتقال، لكنني أصارع لكي أجر هذا التاريخ برمته، وبلا انتقاء، هو هكذا كتلة واحدة، وإلا فلا.

خلال هذا الصراع - الذي ربما امتد عمري كله - أحاول دومًا أن أتفادى المراجعة، أو تفقد ما بداخل الحقائب، لأنني في الحقيقة خائفة، خائفة مما فعلته، من حجم الأشياء المحمولة التي جمعتها والتي لا يمكنني الانفصال عنها. خائفة أن أفتح إحدى الحقائب فيخرج وحش يبتلع مجرد قدرتي على البقاء. لكني مع ذلك أحافظ على الوحش داخل الحقيبة، وأصر على أن يسافر معي، كأنني أقصد أن أحاصر نفسي بالخوف.

الوقت يشارف على الغروب، والسماء لونها رمادي. هناك نافذة واسعة مفتوحة على السماء، لكني أوليها ظهري وأكتفي بتفحص الحقائب. أشعر أن في الحقائب أجزاء من مراحل عمري، من كل الذكريات والتجارب التي تكونني، لكن لماذا هي منفصلة عني هكذا؟ لماذا هي حقائب ينبغي أن أجرها أو أن أحملها؟ ربما كان من الأفضل لو كانت تسري داخلي، تتماسك مع جسدي، لكن من الواضح أن ذلك لم يكن ممكنًا، والشيء الوحيد المتاح أصبح هو أن أحزمها كحقائب هكذا، حقائب متناثرة، متنافرة، وعلى وشك الانفجار.

هل يا ترى لو تركتها - لكي ألحق بالطائرة - سوف تحزن؟ سوف تشعر بالخيبة والخيانة؟ هي لا ترد، كأصنام تترفع عن الحوار، لكني لا أسمح لنفسي بمجرد التفكير، أسرح وأتأزم، وأتأزم أكثر

لمرور الوقت، والخوف ألا ألحق بالطائرة. أتأزم وتشل حركتي تمامًا، وأسمع في حجرتي في البناية العالية التي تصل إلى سحب السماء الرمادية، صوت المضيفة وهى تعلن الاستعداد لغلق بوابة الطائرة. هو النداء الأخير إذن".

***

أسافر إذن وأنا أجر أشباحي واحدًا واحدًا. أثقل على ظهري طواعية.

ويتكرر الحلم، ربما كمؤشر أنه يجب التخفف في الرحلة القادمة، لكنني لا أنصت، فقط أحفظه عن ظهر قلب، وأتأزم لأزمتي فيه، وأمضى إلى السفرية التالية. ربما يكون حل الصراع بسيطًا للغاية لكني لا أدركه، أنا أكتفي فقط بجمع المتناقضات، مثل السفر السطحي، بينما أنا أحيا داخل قبوري المغلقة التي أجرها ورائي في كل بقعة فلا أرى الأماكن حقًا، ولا أتغير. ربما أن صراعي يكمن هنا، في تأرجحي بين الحركة والثبات، المضي إلى الأمام والانشداد إلى الخلف. أنا كائن يتطلع إلى السماء بينما ساقاه تسيران عكس اتجاه رأسه. ولا أريد أن أعود، لا أعرف كيف تكون العودة، لأنني أكررها بأشكال شتى متخفية وليس بالشكل الوحيد الذي يجعلها نهائية ومباشرة.

كان من الممكن أن أنظر إلى الوراء بابتسامة خفيفة، لكن ما يحدث حقًا يبدو لي نتاجًا لرفضي أن أترك الأشياء في محلها من الماضي، أنا أفرض عليها التنقل، أمد في حياتها إلى أماكن لا تتسق معها، وهكذا نتصارع. لو تركت الأشياء كذكريات في الرأس لبدت كظلال خفيفة يمكن زيارتها أو إزاحتها ببطء، لكنها تتحول أطنانا من الحجارة عندما نصر على الحياة معها كل يوم، على معاودة الإحساس بتأثير كل لحظة، كأن في ذلك سر ممارسة الاكتمال بين الأنا الحاضرة وكل نيجاتيف ممكن لها، حتى لو لم نجسر على فتح الحقائب حقيبة تلو الأخرى للمقارنة بين الذكرى والحجر، أو للمراجعة. الجبن أيضًا يفتح الباب للغباء، غباء أن نعتقد أن الماضي / الوطن مخيف، هو كذلك فقط لو آثرنا تثبيته في تلك اللحظة.

***

لحقت بالنداء الأخير إذن، بالرغم من أني كنت آخر الركاب، بالرغم من أنني أخذت وزنًا زائدًا حتى بعد أن تخلصت عنوة من بعض الحقائب، وبالرغم من أنني فقدت تذكرة السفر، لكنني لحقت، وتسربت إلى الداخل بينما الباب يُغلق، وأنا كقطة ليلية من شوارع القاهرة تفلت إلى الداخل دون أن تزول من وجهها علامات الفزع. تسربتُ إذن إلى لغات لا تعرفني، وأناس ما زالوا يظنون أنه بالإمكان تعرف العدو من بشرة وجهه. في الحقيقة

إنني قطعت الخارطة يمينًا ويسارًا، وشمالًا وجنوبًا، لكنني أبدًا لم أتخل عن حقائبي، ولم أشعر يومًا بالانتماء، لكنني تعلمت ألا أنتبه لكل التفاصيل، تعلمت ألا أفصح عن كل الأشياء، وأن أمارس فن المداراة مثل زميلتي الممثلة. ربما ذلك قد بالغ من تصدعات النفس/ النص، من المؤكد على الأقل أنه قادني نحو القطيعة مع لغتي تحديدًا لأنها كانت مفتاح خزانة مليئة بالألم، فكل حرف فيها كان يردني إلى مدلول تاريخي غير قابل للترجمة. أحيانًا يمكن تحويل المعنى، إرساله من خلال لغة أخرى، أو وسيط آخر، لكن الذكرى الحية تكمن في اللفظة الأصلية، في الكلمة التي أنشئ فيها المعنى، وشكلته وشكلها. لذلك، وبينما أكتب لأنحي أشياء كثيرة، كتبتِ بلغة هي نفسها تنحية للغة، لغتي الأصلية، نفي لها، والآن أعود، بلا مقاومة، لكن بكثير من المعاناة، أعود ربما لأن في تقبل الألم حلاوة تشبه الحب. استيقاظ رغبتي في الحب هو إذن الدافع وراء هذا التحول، الذي ربما يتمخض في النهاية عن رغبة سرية في الموت، لا أعرف.

لكنني أفلتُّ قبل إغلاق الباب مباشرة، ورحت أتصور أن ربما أشياء كثيرة يمكنها أن تفلت هكذا، تفلت من الموت إلى الحياة مجددًا، فقط من هذه المساحة الصغيرة، التي بالكاد تسع قطة بسبعة أرواح! ومن المحتمل أن تكون المرأتان قد أفلتتا هكذا، فلم أكن

أصدق أن اليوم الذي تقصان فيه قصتهما سوف يأتي أبدًا. كانتا هناك دومًا، متشحتين بخرسهما، كأن الحقائب أُغلقت عليهما ومع ذلك نجحتا في الإفلات والخروج كالجني من القمقم. وسواء كانتا تُقدران وجودي أم لا، فهذا لا يهم في هذه المرحلة، ما يهم هو أنه لا سبيل للإفلات من التاريخ، لكن ربما أن هناك إمكانات هائلة في تحويله، في إعادة تأويله. فهل هذه الكتابة إذن هي التي تشبهني؟ هل تعارض جنوحي للأبيض الضبابي، لموتي الاختياري؟ هل تنقذني؟

***

محطة القطار الرئيسية في برلين، "محطة حديقة الحيوان"، الساعة التاسعة صباحًا، شهر ديسمبر عام 2004. فجر اليوم، فشلت للمرة الألف في كتابة يومياتي. وأخيرًا قررت أن أكف تمامًا عن المحاولة. القطار سوف يتحرك الآن في أية لحظة. وهو بالداخل. جالس وراء نافذة ما ربما أكون قد جلست بجانبها من قبل. أنا لا أراه، ومع ذلك فهذا ليس فعلًا تراتبيًا، لأنه هو يراني من خلف الزجاج، زجاجه يشف عني، أما زجاجي أنا فلا يعكس إلا صورتي. لكنني أشعر أنني أكاد أراه حتى لو لم تبصره عيناي، أرى حركته، طاقته، أرى عينيه وهما مصوبتان نحوي. لكني لا أبصره. ***أما نحن، المرآتان اللتان أصبحتا واحدة - فنستطيع بحب شديد أن***

نلوح له، أن نتقافز كطفل يدرك لأول مرة معنى أن يَقلّ القطار محبوبه، فقط لكي يعود مجددًا. نستطيع أن نقوم برقصة سريعة وسط دهشة عمال المحطة والمودعين، لكي تكون تلك ذكرى رائعة للرجل الذي لم تُغلق عليه حقيبة ولا تحول شبحًا، هكذا يجب أن نحتفي باللحظات بأن نجعل الجسد ينطلق فيها على سجيته ويشبع الفضاء حضورًا، يعبر عن أنوثة بلا خزي، ويمارس المحبة ولو من وراء الزجاج. ذلك ممكن بالفعل، هو يعرفنا ويطمئنه وجودنا. أما هي فمترددة ما زالت، بين الرؤية والعمى، بين التعرف والإنكار، ومن ثم فهي تشغِل نفسها بالتنظير، بمحاولات التحليل لتصعيد الشك.

***

منذ يومين بالتحديد، جاء من مصر ليزورني. جاء كأنه من كتاب قديم للحواديت، من قصة وردية وفارغة، ليثبت أنه ما زال حيًا، أن وجوه الماضي صامدة ما زالت، لا تنمحي، لكن المعنى وراء مقصده كان جميلًا وممتعًا، ليس قرين عذاب كما أفضل عادة أن أقرأه. لم يعبر بلدانا فحسب، عبَر أزمنة بكاملها، كأنه يعيد الحياة إلى سنوات مضت، دون حيرة كثيرة فيما يعنيه تثبيت الزمن. هكذا تعوَّد هو دومًا أن يفاجأني، أن ينتهك تهكمي من الرومانسية وإمكان السعادة. لكني كنت أعرف دائمًا أن زمن المعجزات لم يوجد من

الأصل، ولم توجد سوى أوهامنا التي نخلقها ونأوِّلها. ومع ذلك فَرِحت، كانت المرة الأولى التي لم أقاوم فيها الفرح. وأعرف أن زميلتيَ في هذا النص، لو كانتا محلى، لكانتا صنعتا كرنفالاً من هذا الحدث. أنا - بشكل ما - لا أريد أن أخون ما رسخت له طوال هذا النص، طوال مراحلي وحقائبي. لكني أيضًا أصبحت أقدِّر الباب نصف المفتوح الذي قد تفلت منه أشياء نشتاق كثيرًا إلى صحبتها.

جاء الرجل، بسترته الفرنسية، وحقيبته الجلدية، وملامحه المصرية الأصيلة التي كانت لا تزال أحيانًا منطبعة على وجه القمر مهما قالت هي العكس. ذلك أن ملامحه كانت تعيدها إلى الوطن بالداخل، كانت تشدها، وهى لم تكن تحب ذلك، لم تكن تحب أن هناك شيئًا يجذبها بهذه القوة وينفى يقينها في الانتماء. لكنها امرأة وحيدة - مهما تظاهرت بالعكس - وغبية من وجهة نظرنا الآن، وبكل الذكاء المزدوج الذي أصبحنا نملكه. هي لا تزال شابة، ولها جسد جميل، وعينان فيهما لمعان غريب، لكنها لا تدرك ذلك كله، أو ترفض أن تدركه. وعندما تأتى اللحظة المناسبة سوف نقول لها إننا سوف نسعد حقًا لو فتحت لنا الباب لندخلها، ونتكون ثلاثتنا من جديد. لكننا بالتأكيد لن نفتحها. ولو فاجأتها نوبة ذكاء، فسوف تعرف ذلك من تلقاء نفسها. وبالتالي فسوف تستبدل الكتابة في المخيلة، بالكتابة الحقيقية، والتأمل بالحياة، الحياة بالفعل.

هو لا يتحدث كثيرًا، لا يثرثر. سواء من وراء الزجاج أو من أمامه. قبل أن يأتي القطار، كنت أحتضنه. كان ينام بين ذراعَي آمنًا كطفل، وكنت تقريبًا أستسلم لذلك العناق، كنت أود لو أعتصره. كنت كأنما أحتضن نفسي، وأحتضنه، كأنه استكمال لجسدي وكأن ذراعيّ هما ذراعاه. ابتسمت، لكنه لم يرني، كان مغمض العينين، ساكنًا، وشارفتُ على البكاء. لماذا كان ذلك؟ بسبب ما دار في تلك السنوات الماضية؟ أم بسبب إمكان تجاوز كل ما دار في السنوات الماضية؟ أم لأن الفرح ممكن وقريب؟

وبمجرد أن أعلن الميكروفون اقتراب قطاره، دفعته عنى، كأنما أستطيع إبعاد السعادة بحركة واحدة. لكنه ظل معي، بين ذراعي، لأن شيئًا فيه كان أكبر مني، مع أننا من مواليد العام نفسه. كنت لا أزال سعيدة. حاولت أن أفتش بداخله عن الكلمات، أن أستنزف اللحظة، المعنى. سألته إن كان سعيدًا، كنت أخشى من أنانيتي، من تمركزي حول ذاتي. لم ينطق، رفض أن يشاركني تحويل اللحظة. نظر في عينَي وأطلق طاقة من الفرح تتحدى انتظاري، ومرور الزمن، وصوت القطار القادم كأنه يفرم لقاءنا. ثبتَ اللحظة.

***

وبالطبع استعجلَته ليصعد في القطار، وبحثت عن أي شيء يلهيها عما شعرت به للتو. وبمجرد أن جلس وراء نافذته،

تسمرت قدماها، لأنها لم تكن تستطيع أن تناديه أو تجذبه بعينيها، أو بأناملها الأنثوية التي قد تتحسس الزجاج وترسم عليه شيئًا. لم يلحظ المسافرون ولا المودعون وجودها، كأنها شبح، مع أنها كانت تستطيع أن توجد في ثانية لو أرادت. كانت تستطيع أن تقفز وراءه في القطار، أن تقبِّله عبر الزجاج، أن ترسم اسمه في الهواء. لكنها لم تفعل. وقفت تتأمل ما إذا كان يستطيع رؤيتها وتستطيع رؤيته، وتتساءل متى يرحل القطار ويرحمها من نفسها ومنا. أجل كان صوتنا يعلو حينئذٍ لدرجة أنها لم تعد تستطيع أن تتجاهلنا، ولا حتى نصها سلم من تدخلنا، ولن يسلم منه مطلقًا من الآن فصاعدًا، وإلا فما فائدة كل التحديات والانكسارات والآفاق التي مررنا بها، ما فائدة توحدنا واستيقاظنا؟

***

استعد القطار للرحيل، بينما أطل هو برأسه من باب المقطورة قبل أن يغلق بثانية. نظر إلىّ سريعًا، كأنما يناديني لأرحل معه، ليذكرني أن هناك بابًا ما زال، أو - فقط - لصنع لحظة أخيرة جميلة للذكرى، للقاء عيوننا ووجهينا دون زجاج النافذة، دون حاجز يسهل التأويلات ويبعدنا. عندئذٍ سقطت كل أدواتي. تهت. اختلطت الأوراق والخطط والحلول البديلة والأصوات. أنا أريد هذا الرجل، أريد أن أكون معه، أن أكون له. وبالفعل تحرك القطار. رأينا **بابها ينفتح**

في بطء، في وهن، فسارعنا باقتناص الفرصة. أصبحنا هناك معها، في حواسها، في جسدها. انطلق القطار تدريجيًا، وأدرت له ظهري مباشرة، كان عقلي حيًا، يقودني في الاتجاه المعاكس. أنا لن أنظر للقطار وهو يمضي، لن أقتفي أثره، لن أخطو في اتجاهه: سوف أجري عكسه، لكي يختفي أسرع مما هو مفترض، لكن عقلي ليس وحده الذي يحركني الآن، هناك شيء ما جديد، شيء آخر أدركه الآن فقط، يجذب حواسي وجسدي إليه. أجري وأقاوم، أخاف، أحاول أن أنجو بتعاستي، أن أتشبث بيأسي. أجرى بالفعل، لكني لا أبتعد سوى أمتار قليلة، عقلي وحده الذي كان يجري، أما كلي فما زال معه، ما زال يحتضنه، يحتضنني، ويستسلم للممكن. لم يرحل القطار إذن، أو لنقل إنه انطلق وترك المقطورة الوحيدة التي تخصني، أقرب مما يمكن لأي أحد أن يظن.

لذلك فسوف ينجح رهاننا، سوف تعود مرة أخرى، بعد يومين أيضًا، لأنه يريد أن يعود، ولأننا نريده أن يريد أن يعود، ولأننا تأكدنا - في محطة القطار، وفي الساعات التي سبقت ذلك - أننا لسنا وهمًا. هل يعني ذلك أن الحياة قريبة للغاية؟ أنها تبعد يومين؟ أو ربما أنها بدأت بالفعل...

***

في نفس المدينة مترامية الأطراف - فقط لأنها جماع عدد لا حصر له من القرى الصغيرة - والتي فاض تاريخها عنها، فتأزمت ذاكرتها به، كانت هناك امرأة وحيدة ترقد في فراش مرتفع للغاية عن الأرض. المرأة كانت أنا. وكنت ما زلت أحاول أن أزيح امرأة الشلل من مكانها، أن أخرجها من قبرها الحجري. ثم أغمضتُ عينَيّ وحلمت.

كانت هناك طاقة ما تشع حرارة، بشرة قريبة للغاية من وجهي، لا تلمسه لكنها تلقى بحرارتها عليه. كان وجهًا آخر، حميمًا وطيبًا لكني لم أستطع `أن أراه، كنت مغمضة، في الحلم وفي الحقيقة. لكنني أحسسته، تعرفته، غير أن ملامحه لم تكن قد ارتسمت بعد. تعرفت قربه كأن وجهه هو وجهي. لم تكن هناك أية تفاصيل، فقط تلك الحميمية، والطاقة التي تعبر الأزمنة والأماكن. ارتحت، كأنني عدت إلى البيت، إلى الشمس.

ابتسمت بكل كياني، لاكتشاف أن تلك الحميمية ما زالت موجودة، أن هذا الترحاب ممكن. استرخى جسدي وعقلي في الفراش. اقترب الوجهان أكثر، وضممت شفتي لكي يقبلني، ناديته. وحدثت القبلة التي تَحييني من خارج الحلم.

فتحت عينيّ وأنا في قمة الابتسام. مددت يدي وأمسكت بالمحمول. في سرعة خاطفة وبأصابع مدربة، كتبت: "حلمت بك للتو - أشعر

أنك قريب جدًا". وضغطت على زر الإرسال، لتصل رسالتي - وأنا نصف وعي نصف حلم - إلى الرجل نفسه. الرجل الذي لا يعرف عني شيئًا منذ أعوام، وأنا بالمثل. ومع ذلك فبنفس السرعة المدربة، وربما أيضًا بين اليقظة والنوم، أجابني هو. كان ذلك حوالي الساعة السادسة صباحًا، أدرت وجهي إلى النافذة الزجاجية الواسعة، التي بطول الفراش الملاصق لها، وملأت عيني بلون السماء المشرق وعزم الشمس على الاستيقاظ. ملأتُ عينَيّ بلا محدودية السماء. وقفزت من الفراش الحجري في نَفَس واحد.

وبعد بعض الأشهر، والرسائل القصيرة، والمكالمات الطويلة، ظهر الوجه في مدينتي، التي أصبحت أسميها هكذا مؤخرًا بعد أن اكتشفت تصدعاتها وانقساماتها التي تشبهني. ظهر الوجه واقترب بالفعل، وغمرني بطاقته التي كانت في الحلم. لم أصدق في البدء، دققت في ملامحه، تحسست بشرته بأطراف أصابعي، كأعمى أبصر لتوه ويحاول المقارنة بين ما يراه وذاكرته الحسية عنه، يحاول أن يطابق بينهما. وأنجح بالفعل. يبتسم هو هذه المرة، ابتسامته تملأ وجهه، يكاد يقهقه، ثم يحتوى كفى في راحة يده، يضغط عليها ضغطة خفيفة، في مزيج من الحنان والمواساة. أشعر كأنه يحتويني كلي، فأغمض عيني وأقبله في راحة يده.

***

على مدار تلك الأيام القليلة، أو الساعات العديدة، التي سبقت مشهد محطة قطار "حديقة الحيوان"، حدثت حوارات طويلة، بالكلام والإيماء، وبالنظر والإحساس. تلك لغة لم أكن لأتواصل معها، أو أدركها، لولا أن شيئًا فيَّ قد تغير. شيء كأنه قلب منظور الحياة، دون أن يضاهيه في قوته وإلغازه سوى توحد المرأتين. يطيب لي أن أظن أن توحدهما قد تزامن مع تلك الفترة، لأن ذلك يجعلها تبدو فترة واحدة سعيدة للجميع. أتذكر أيضًا أنني كنت أكافح لكي أتحدث العامية، عربيتنا، ليس لأن الفصحى كانت أقرب لي، وإنما لأن الإنجليزية كانت قد أصبحت لغتي اليومية طيلة عامين على الأقل. لكنني كافحت، وأصررت على تذكر التعبيرات العصرية الشبابية في مصر، وفكرت مليًا قبل كل جملة كي أطمئن على سلامة تركيبها، وسلاسة الحروف قبل أن تخرج من فمي. كثيرًا ما كنت أخلط بين المذكر والمؤنث، وفي غالبية الأحيان كنت أضع المفعول قبل الفاعل، وكان هو يتحملني دون أن يعتبر تلك الأخطاء كناية عن بعادنا، أو تغيري، وكنا نضحك سويًا كلما اختلطت الحروف في حلقي، وخرجت مزيجًا غير مرتب يدعونا لتنظيم الكلمة من جديد وكشف غموضها!

أما ماذا مثلت تلك الأيام بالضبط؟ أو ما هي تحديدًا الوقائع التي دارت أثناءها؟ فليس لدى رد واف على ذلك. وربما ينبغي عليّ في

هذه المرحلة أن أوضح أن هذا ليس نصًا أو توبيوجرافيا، ولا هو يحتشد بالتفاصيل والوقائع، أو الإجابات المبتغاة.

***

كثيرًا أيضًا ما كنا ننطق سـويًا بالكلمة في ذات اللحظة بالرغم مـن الخلط اللغوي الذي كان ينتابنـي، ومن تفكيري المتمهل الذي كان يعطله أحيانًا. لكنا عدنا ننطق سويًا بلا تحضير، بنفس الفكرة، نفس الشـعور. للمرة الأولى، لم أتحير فيمن يقود دفة هذه العلاقة، ومن يكتبها. غلبني الحنين إلى سـليمان باشـا، وميدان التحرير، والأنتكخانة، والأرصفـة، والمنعطفات التي أتخيـل أن خطواتنا ورائحتنا ما زالت تسـكنها، ما زالت تتعلـق بلحظات الحب التي نحتناها سـويًا هنـاك. أجل، أحب حتى وقع هـذه الكلمة: "غلبني الحنين"، أتوق إلى النيل، إلى مجرد منظره بلا أية رومانسية مثقِلة. فهل أصبحت أنا السـائحة الأجنبية التي تحب فيك البشرة السمراء والملامح المصرية الأصيلة؟! شـيء مضحـك مجرد التفكير في ذلك الاحتمال. لكني أعشق أيضًا - ما زلت -: "لحظات الحب التي نحتناها سويا". وأتساءل عما إذا كانت علاقتنا تمر بالأساس باللغة، كأن اللغة صارت جزءًا عضويًا منها..

أنا مثلًا أحفظ فقرة عن ظهر قلب، لكنني أتمنى جدًا أن أنحيها

فيما أحاول تنحيته بهذه الكتابة، أتمنى أن أتمكن من مقاومة جرسها وتأثيرها، لذلك فسوف أضعها هنا لكي أتخلص من إلحاحها في أذني، هكذا:

"بالأمس، وضعت صدرك على صدري، كتفيك على كتفي، وتلامست أثداؤنا داخل القميص الوردي الذي أبتاعه لك. لم تكن أنت هناك. لذا تأكدت جيدًا أن القميص مطابق لمقاسي. اشتريته. وتمنيت أن يناسبك تمامًا، أن ترتديه فنتطابق أو نتناسب معه. ونستطيع أن نتبادل قطع الملابس ذات يوم".

أنا الآن أريد أن أقول إنني بالفعل على استعداد لتغيير القصة. يبدو أن ذلك قد استغرق وقتًا طويلًا، سواء لاكتمال الاستعداد، أو لتنفيذه. لكنه ليس متأخرًا. لا يتأخر الوقت على أي شيء، نحن الذين نسقط عليه هذا الدور إذا أردنا للموعد أن يفوت، ولو من باب أن نجد شيئًا نستطيع التعلل به. لكن النسيج اللغوي الرومانتيكى، والذى يصوغ العاطفة بدرجة أو بأخرى، أو يفرض تراكيبه عليها، لم يعد يكفيني، لم يعد يشبع حواسي، ولم يعد بإمكاني أن أتسامح مع جمل مثل: "لم تكن أنت"، لأنني تحديدًا أطمح لأن أملأ نصي هنا بالحضور، حضورك وحضوري، وليس بالغياب مهما كان مثيرًا للخيال.

داخل هذا السياق إذن، أستمتع حقًا بالكتابة، أستمتع بسرد ما حدث منذ قبلة الحلم، مرورًا بالأيام التي سبقت محطة القطار، ووصولًا إلى تأمل طبيعة الكتابة والعاطفة الآن. شيء غريب بالنسبة لي أن أكون "مستمتعة بالكتابة"، فهاتان الكلمتان لا تبدوان منسجمتين، أو لم أجمع بينهما أبدًا فيما قبل. جديد أن تكون الكتابة فعل متعة، كأنها فعل حياة تقريبًا، فعل يشبه الحياة، لا يعوضها ولا يحل محلها شيء. تنتابني شبه فرحة وأنا أحفر الحروف بالقلم الأسود، كأنني أعود إلى طقس حميم ومحبب وطفولي كنت قد نسيت أنني أستطيع ممارسته. أعطي لكل صفحة في هذا الدفتر رقمًا، وأحسن من خطي، وأشطب على ماركة الدفتر الأجنبية لكي أنسى أنني أكتب بلغة لا تنتمي لهذا البلد التي أسكن فيه. أرتب الأقلام، أعطي لكل لون منها دورًا محددًا في هذا النص، وأحرص على أن أرتدى أبهى ثيابي أثناء جلسة الكتابة. باختصار، أنتشي بممارسة فعل العودة.

أعني بذلك فعل العودة إلى الكتابة، وليس العودة بالطبع. فهل تبدو هذه محاولة أخرى لكتابة القصة نفسها؟ قصة الحب؟ أم قصة الكتابة؟ هناك قصص لا يمكن الإفلات من غوايتها، وهناك كتابة تُكتَب وتحيى أصواتًا دون حتى أن ندركها، لكنها تظل هناك، حاضرة بقوة دون أن تفشي سرها. تبدو مثل قصة كلير لان، التي

ظلت قصتها تُكتب على مدار ثلاثين عامًا دون أن يلحظها أحدٌ. المرأة التي فشل الجميع في فك عقدة لسانها، في الولوج إلى عقلها، في ترجمة شفرات شرودها وإيماءاتها التائهة، هي نفسها كلير الطيبة الودود، التي تملك ابتسامة طفل وبراءة حَمَل، التي لا يملك أحد إلا أن يتعاطف معها. هي هذه، وهي تلك، هي المنقسمة على نفسها التي كُتب عليها خيار الصمت والغياب، وكتبت في صمتها قصتها، ومصيرها الذي لم تعرف هي نفسها أن تقرأه. كانت المحبة قد تلاشت من البلدة الصغيرة، وبدت كل الآذان كأنها صُنعت من الأسمنت. تسمرت المرأة في جلستها في الحديقة، حتى توحدت مع النبات، صارت قطعةً من الحديقة نفسها. لم يكن ذلك شللًا، لأن العقل كان متقدًا، كان مليئًا بالأصوات المتضاربة، بانقساماتها وقد انقسمت على نفسها وتكاثرت من تلقاء نفسها. لم تكتمل كلير الناصعة العاشقة سوى بفعل القتل، بقتل المرأة الوحيدة التي كانت صديقتها، التي أحبتها وحاولت أن تفهمها. كان القتل لها فعل حب، فعل اكتمال، استيقاظًا لكل الحواس، إحياءً للجسد. ولأننا لا نقتل سوى مَن نحب، تمامًا مثلما قال الرجل في "لاموزيكا الثانية"، ذلك الذي عدل عن إطلاق الرصاص على زوجته عند عودتها، في محطة القطار، وبدافع من شكه في خيانتها، لأنه بمجرد أن رآها شعر أنه لم يعد يحبها، ومن ثمّ لم يكن لديه دافع لقتلها.

أحيانًا نقدم على أفعال شنعاء لأنها الرحمة الوحيدة الممكنة،

لأنها السبيل المتبقي لإخراس الأصوات التي تأكل في العقل، أو لتسريبها إلى الخارج. ولكل منا طريقته في التعامل مع تلك الأصوات، لكل منا قصته التي تُكتب به أو له، وأحيانًا تُكتب عليه. ذلك أيضًا ينطبق عليّ.

هنـــاك مثلًا الممثلة التي كانت تقول إنها تكلم القمر، وتســـتطيع أن تقـــود ثورة كناســـي المدينة، وتغـــوي المثليين جنســـيًا. كانت مزيجًا من الحســـية، والثورة، والانتحار المقنَّع. دائمًا كانت ترتدي الســـواد، وتجذب الجميع بغموضها، بفجورهـــا وحزنها النهائي. فـــي جميع المرات كان مصيرها المـــوت، أو الجنون على أفضل الفروض، وبالرغم من أن الجميع لفظها، نفيًا لشـــعورهم بالذنب، أو لازدواجيتهم، فقد تلقت هي تلك الاستجابات، سواءً كانت للدور الذي تجســـده، أو لوجودها ذاته. واســـتمرت لأنها كانت ســـعيدة، بثورتهـــا، بالقلق الذي تثيـــره بحضورهـــا. كان صوتها صارخًا وعميقًا، وملتقى لنســـاء عديدات حتى لو لـــم يفصحن. في التمثيل أحيانًا اختراق لحواجز لا يمكن مجابهتها في الواقع، فيه ربما تحقق لما يعجز عنه الواقع، وبالتأكيد شـــعرة من الجنون. نفذ صوتها إلى العظم، إلى قلب الحريـــة، ونفض كل الأقنعة، حتى أوهمها بنجاح التحدي. صدقت أن "العالم أنا" وأن "أنا العالم"، وأن التوحد ممكن، والتســـامح ممكن. دعتهم للاعتراف، وبدأت بنفسها، لكنهم اختاروا

الخناجر في النهاية وتحولت هي قربانًا لفيدرا العاشقة، تحولت سرًا آخـــر ينبغي إخفاؤه أو محوه من الذاكرة، لأن المرأة من ذلك النوع مؤلمـــة، لأن الممثلة من ذلك النوع يجب دفنها في كواليس مجتمع ينفي وجودها. ومع ذلك، فقد وجدت لفترة ما، لتلعب دورها، ليعلو صوتها، ويتسيد تلك اللحظات الاستثنائية العابرة.

وأنا واحدة من هؤلاء الذين سمعوا صراخها، الذين توحدوا معها أو مع دورها. تسللت إليّ وجثمت ثورتها في صدري، تغويني بواقع ممكن، تغريني لكي أخرج بها. لكني لم أعرف أبدًا السبيل إلى ذلك، المسرح هو المسرح، الجسد هو الجسد، وأنا لا أداة لدى سوى الكتابة، تلك التي تقتل جزءًا من ثورتها بمجرد المحاولة، تختزلها. لكنها صارت تسكنني تقريبًا، تؤرقني، تزيح الغمامة عن عيني بعناد، وتتكرر فيّ أصداؤها، في امرأة الجسد التي تحلم باعتلاء العالم وتثبيت الزمن، وفي نساء عديدات يتساءلن حول العلاقة ما بين الحقيقة والأنوثة والحياة.

بطريقة مهنية ما، يمكنني أن أربط هذه القصة، هذا الصوت، بامرأة أخرى ألبسوها ثياب رجل ووضعوها على حافة المسرح، بينما هي تواجه الجمهور لأول مرة في حياتها. المرأة تلك كانت راقصة، وكان جوهر قصتها في الحركات التي سوف تقدمها. لكن تلك أيضًا كانت أزمة قصتها. يبدو أنه كان لها جسد مختلف،

أو طاقة مختلفة في أنحاء المسرح. كان في ذلك توزيع شبه جيد للأدوار، انتماء إلى المجموعة وانفصال في آن، وجود وغياب، لكن قبل هذا وذاك مواجهة لم تكن تعرف معناها من قبل. هي في مقابل حشد الجمهور. ولكي يحدث ذلك، ألبسوها ثياب رجل. كانت حركاتها، الموضوعة لها، تعبر عن الصراع، ومناطحة الهواء، وتحديه، والفشل والتكرار، والمحاولة، والاعتصار في المحاولة، ثم التكرار من جديد، ونفض القديم، والاستماتة بكبرياء لكسر التكرار، ولاكتمال الحركة / المحاولة. كانت تبدو كمن تعثّر في جسده، كمن يجاهد جسده لكي يتقدم إلى الأمام، لكن الأمام حافة، حافة المسرح التي لا شيء بعدها سوى السواد، والناس الذين لا تستطيع رؤيتهم، لا تستطيع تعرفهم. ولكي تستمر كان لابد أن ترتدي ثياب رجل. ربما أن المصمم هيئ له أن ذلك يساعدها في الحركة، أو في التحدي، أو ربما أنه وضعها في وضع خاص بالتباين مع المجموعة. المرأة التي في ثياب رجل، التي تكاد تقذف بنفسها من الحافة لتصارع طواحين التكرار. ودرعها كان هو زيها. لكن زيها أيضًا كان هو قناعها، حاجزها بينها وبين نفسها، لكنه لم يكن أبدًا جسرها. بدا كشيء إضافي ينبغي أن تصارعه، أن تتغلب عليه. والناس، ربما استراحوا كثيرًا لتلك المعادلة، ربما استراحوا لها أكثر من صراخ القمر، والرغبة الدموية في الاعتراف ومؤازرة كناسي المدينة. وفي جميع الأحوال، ظل صوتها مكتومًا. ظلت قصتها مكتوبة

بالحركات، نفس الحركات التي كان الرداء يقمعها، أو يشكل تصميمها الراقص. لكنها حاولت، أن توجد وحيدة، مفصولة عن العرض، ومكتملة، صدى للرفض وللقناع الذي ينبغي مجاراته لأنه الفرصة الوحيدة. ولم يصمت جسدها، أراد أن يخلع الهوية الملفقة عنه، ويكون نفسه. أراد أن يتعرى، أن يتخلى عن قناع الذكر الذي يشكل حركته، لكي يكون خالصًا. ومع ذلك فقد وجد في هذا القناع، في هذا الدور، شيئًا من أنوثته وذكورته المختلطة، أي شذرات من اكتماله ولو بشكل مخلٍ. وهكذا استمرت، واستمرت رغبتها في الانتماء والتفرد، في العُري والتقنع، في الانكسار والمناطحة، وفي الذكورة والأنوثة المتكاملين.

لكن ماذا نفعل بتلك الأصوات التي نعيد كتابتها مرارًا وتكرارًا لأننا لا نستطيع أن نفلت من غوايتها، أو لأننا لا ندرك أنها كتبت من قبل؟

يمكننا مثلًا أن نعلق عليها هكذا:

"ذكريات موت الآخرين

يمكننا أن ندفنها

جميعًا دفعة واحدة.

لكن ذكريات موتنا الشخصي،

ماذا نفعل بها؟

نعاود قتلها مرة أخرى؟

أم نغلقها؟

أم ندعها تتراقص حولنا

كأشباح رمادية عرجاء

أخفقنا حتى في أن نصنع لها

شواهد قبور

عرجاء مثلها".

وبالفعــل، عاد. نجا للمــرة الألف. أثبــت أن المغامرة ممكنة. ومفرحـــة. وبينما وقفتُ في مطـــار "تيجيل" ببرليـــن، أنظر إلى الصفحـــات الأخيرة - الغريبة والمرعبة - من هذا النص، وأتعجب مـــن تلك الأصوات، وأخاف، لمحتُ انعـــكاس وجهه على الزجاج الفاصل بين صالة وصول الركاب، وساحة المستقبلين.

وبرغم إغراء التشبيه الاستعاري الممكن، بين ذلك الزجاج وحائط برلين، لا سيما أنه مناسب للسياق الجغرافي، إلا أنني أزحته من خيالي للتو، بل إنني أزحت أيضًا الرغبة الخبيثة في أن أتظاهر بأنني لم أره من الأصل. كنت أرى وجهه منعكسًا على الزجاج، وكان هو يرى وجهي من الناحية الأخرى، كفعل تراتبي بسيط، كأنها مرآة مزدوجة، لا يمكن أن تحدد فيها من الصورة ومن الرائي. عندها أزحت أيضًا الدفتر في حقيبتي الصغيرة. وانتظرت.

خرج إلى ساحتي، بينما المستقبلون هذه المرة - على عكس مودعي محطة القطار قبل ذلك بيومين - يتابعون اشتياقنا وهو يتحول إلى لقاء، يرصدون تغير شكل الطاقة، والحركة، قبل عبور الزجاج. وبعده. للحظة خيل إليّ أننا نصور فيلمًا، والفيلم يدور حول أشكال الوداع واللقاء بين رجل وامرأة، بل يقوم السيناريو فيه على استعراض مختلف أنواع وسائل السفر التي تقله بعيدًا عنها، والتأثير المحدد الذي تتركه كل وسيلة على إحساس كل منهما بالآخر. في هذا السيناريو، يلعب المودعون والمستقبلون - أو المجاميع - دورًا حيويًا، ليس فحسب لأن الفيلم موجه إلى الناس العاديين بالدرجة الأولى، وإنما لأنهم في الحقيقة المقياس الوحيد الممكن لقراءة ما يجول بذهني وجسدي الرجل والمرأة. للمرأة دور صعب في الانتظار، لكنه ليس انتظار النساء التقليدي الذي يسائل

كل شيء، ويحاول إعادة ترتيب الحياة، يحاول العثور على يقين. لكنه يسائل اليقين نفسه كذلك. هو الانتظار الذي يجاهد المرء خلاله كي لا يتحول إلى موت، كي لا يتحول إلى نهاية. تجاهد المرأة خلاله كي تحافظ على الباب نصف المفتوح، كي تقتفي الأصوات وتحللها وتصاحبها، وتحولها. وفي آخر كل انتظار، تنطلق لتقابله. اختبار جديد. أما هو فدوره ربما يكون أشد تعقيدًا، فهو الذي يستقل طائرات وسفنًا وقطارات ويجد مرة في انتظاره المرأة التي يعرفها، ومرة يجدها امرأة أخرى، مرةً يشعر أن لصوته صدى، ومرة يجده وحيدًا مكتومًا. هو يخوض الفيلم إذن كمغامرة، كحركة دائمة في كل الاتجاهات، أما استقراره فيكمن بداخله فقط.

طالت اللحظة وأنا أتخيل هذا الفيلم الخرافي، الذي بدا لي أقرب إلى أفلام الخيال العلمي منه إلى الأفلام العاطفية، أو أفلام الرحلات. وكان أن تدخل هو ليوضح لي طبيعة الفيلم من وجهة نظر إخراجية. قال لي إن هذا الفيلم يدور تحديدًا حول التفاصيل، حول المشاعر، لكنه لا يهدف إلى إثبات أية مقولات كبرى، لا يهدف إلى إثارة قضية بالمعنى المؤدلج للكلمة، هو يهدف ببساطة إلى الوصول للقلب، إلى الإمساك بلحظات واكتشاف مشاعر إنسانية رقيقة وحميمة، يمكنها أن تصل إلى متفرج، وبالتالي تَخَلق هذا التواصل السحري، مثل التواصل الذي يشعره المستقبلون مع المرأة في المطار، عندما

تذهب للقاء حبيبها. انطلق في شرحه بهمة، دون حتى أن أكون قد نطقت كلمة واحدة عما كان يجول بخيالي. ضحكت لأنه كان قد انتهى مؤخرًا من إخراج أول أفلامه الروائية الطويلة، وكان محتشدًا بلحظات الوداع واللقاء، بحالة أقرب إلى ما نعيشه نحن الآن. تذكرتْ فجأةً عبارةً من نصها القديم، الذي كان أيضًا أول نصوصي الروائية الطويلة. العبارة خلقت جسرًا بين الماضي، وما يحدث الآن، تحديدًا لأن الفيلم الأول قد تم إنجازه، كأن في ذلك إشارة للقائنا في حالة ممكنة من السعادة والتحقق. ربما.

فرحتُ بشدة لهذا الاستطراد، لقدرتنا على النفاذ كل إلى خيال الآخر، ومتابعة السيناريو الخاص به وهو يتشكل في رأسه. ثم تفتحت عيوننا على الشارع. على برلين التي رأيتها من الدور العلوي لأتوبيس النقل العام. من مقعدينا في المقدمة تمامًا، شعرنا كأن الأتوبيس لا قائد له، ليس هناك أحد يحول بيننا وبين زجاج النافذة الأمامية، كأن الأتوبيس ينزلق وحده إلى الشارع المفتوح، بلا إشارات مرور، أو كأننا - وهذا اقتراح أفضل - نحن الذين ندفعه بقوة رغبتنا في التقدم، بعيوننا المصوبة نحو الأفق. هذه متعة طفولية لذيذة. أن نخترق kurfurstendamm من أعلى، من فوق مستوى النظر العادي، لنكتشف ما عجزت عيوننا عن رؤيته لأننا، من قبل، كنا ننظر أسفل أقدامنا، نتحسس خطواتنا، ونعتقد أن الدنيا لا تعلو عن مستوى الرأس.

اللحظة التي ندرك فيها قدرة الحلم على دفعنا نحو المستقبل، هي اللحظة نفسها التي نقترب فيها من السعادة، من الارتفاع عن الواقع، والتقدم الفعلي. ربما أن ذلك يفسر كيف أن امرأة ورجلًا مصريين - بل إن انتماءها لهذه الهوية يزداد كلما سافرا - يمكنهما أن يشعرا أنهما قد امتلكا برلين، أو أنهما قد انتشلا تلك العجوز العاشقة من الوحدة، تلك الوحدة التي لم تتبدد باتحاد شرقها وغربها، تحديدًا لأن التاريخ لا يمكن محوه، والذنب لا يمكن محوه، حتى لو أعدنا بناء المدينة وحاولنا طلاء جدرانها بكافة الألوان الزاهية لكي نخفي لون الماضي الدامي، ونتظاهر بالبدء من جديد. فقط الحلم يستطيع أن يساعدنا على البدء من جديد.

وهكذا نبتسم لأنه ينتابنا شعورٌ بأن المدينة تفتح لنا ذراعيها، أن الأنوار المتكاثرة في الأشـــجار العالية بمناسبة الكريسماس ورأس الســـنة، هي مخلوقة أيضًا لنا، لاســـتقبال نشـــوتنا بها، واستكمال الإضاءة الخرافية الواجبة لهذا المشـــهد الاســـتثنائي. وأهم ما في اســـتثنائيته أنه يزيل الإحســـاس بالغربة، بالغربة وسط جغرافيا لا تعرفنا ولا نعرفها، فقط للحظات يتقاسم فيها الجميعُ الرغبةَ الملحةَ في الفرح. هم ينتظرون المناسبات لكي تُكسب رغبتهم تلك شرعية ما، فيحتفظون اليوم بآخر يوم من أيام السنة وينتظرون بفارغ صبرٍ اليوم الجديد الذي قد يصاحبه أمل جديد، وبداية جديدة. ونحن أيضًا

نحتفل، لكن ليس بالضرورة بالمناسبة نفسها، ربما أننا نحتفل بشكل عام إذن.

بـــدا أن النور يزدادُ كلما تقدمنا، أن الشـــارع ينفتح كلما مررنا فيه، ونرتفـــع نحن أكثر. لوهلة اختفت المدينـــة تمامًا. كنا معلقين وســـط النور فحسب. وســـط إضاءات فيها الكثير مما نبدعه نحن، من التخييل.

***

ليل داخلي. برلين. حجرة واسعة وخالية من الملامح. يوم 31 ديسمبر عام 2004. امرأة عارية تقف أمام المرآة. لا تنظر إلى جسدها، برغم أن المرآة خالية من أية انعكاسات أخرى. المرأة هي أنا. لم أحاول أن أكتب يومياتي قبل ذلك بلحظات، لأنني قد قررت أن أكف عن المحاولة، لكن الفكرة خطرت ببالي، خاصة لأنه اليوم الأخير من العام، من عام مليء بالمعاناة والتحول، كأنه تجسيد لتاريخ بأكمله. لذلك اخترت أن أكتب نفسي هكذا، بضمير الغائب..

المرأة ما زالت تنظر في الفراغ، المرآة أمامها وعيناها مصوبتان في ذلك الاتجاه، لكنها لا ترى نفسها، تتعمد أن تنظر عكس نفسها، ولو في نفس الاتجاه. هي ممتلئة بالفرح في الحقيقة، وبالرغبة في الاحتفال، لكن جزءًا منها مغيب، وأجزاء أخرى حاضرة لكنها لا تستطيع أن تندمج سويًا، أن تخلق كلًا يمكنها من النظر إلى نفسها/ جسدها في المرآة، والتعرف، بلا تردد، بلا خوف. هي لا تراجع

عمرها، ولا ما أنجزته هذا العام، وما أخفقت فيه. للمرة الأولى هي لا تفعل ذلك، ولا تشعر بأي إلحاح للقبض على ما تعودت أن تفعله في هذه المناسبة من كل عام. لا تكترث بضبط ملامحها أمام المرآة، هي لا تعبأ بملامحها، ولا بالمكياج، ولا تبحث عن طريقة لتشكيل وجهها بما يتناسب مع منطق الاحتفال. هي لا ترى وجهها من الأصل. لكنها موجودة، عازمة على المضي إلى الأمام، والخروج.

تتصاعد أصوات الألعاب النارية، والصواريخ التي تنفجر فور انطلاقها نحو السماء لتمطر الدنيا بالنور مرة أخرى. كأن العالم يصرخ، يستجدي شيئًا ما، وفي استجدائه هذا شيء مخيف، مرعب.

***

وقفنا في صفٍ طويلٍ في شارع الأشجار المضيئة نفسه. الصف مليء بالبشر، ونحن وحيدان، لكننا متآلفان مع كل ما يحيطنا أكثر منهم جميعًا. يختمون على يدينا لكي ندخل وننتمي إلى الجماعة، جماعة الاحتفال بليلة رأس السنة، في المرقص الشهير الذي يمتلئ اسمه بالمجاز دون نية مسبقة، way out أو الطريق إلى الخروج.

دخلنا كطفلين يذهبان إلى حفلة راقصة لأول مرة في حياتهما.

ذلك حقيقــي، ولا مبالغة فيــه. في "الطريق إلــى الخروج" كان الجميــع متأهبًا، ربما لا لشــيء بعينه وإنما لأي شــيء قد يطرأ. كان منهم من بذل ســاعات طوال في الاستعداد، ومن خطف نفسه من حالة أخرى، وجاء لكي لا تفوته المناســبة، اختلط الجميع وإن لــم يندمجوا، المراهقون في ملابســهم المهلهلة التي تفوح برائحة البيرة العدمية التي أفرزتها إليهم الأجيال السابقة بلا خيار، العجائز الذين يشــاهدون الحدث بعيون ساخرة لا يدهشها شيء ولا يصدها شــيء عن الرؤية؛ النساء الوحيدات الباحثات عن رجل يشاركهن الرقــص تمهيدًا لفاتحة عام جديد يعيد إليهن أنوثتهن؛ الرجال الذين لن يصيدوا هؤلاء النســاء، لأن ذلك ســوف يفقد المغامرة متعتها الكامنــة في التحدي والمطاردة، وإنما ســوف ينتظرون في حكمة ومكر اللحظة المناســبة لغواية المرأة التــي جاءت بصحبة رجل آخر، ولو نجحوا فســوف ينتهي هذا الأخير إلى المغادرة بصحبة واحدة من الباحثات عن شــريك في الرقص كأنها الدوامة التقليدية للخروج الوهمي.

أمسكَ بيدي وتقدم مخترقًا تلك الكتل البشرية. أحيانًا أفاجأ بالناس، بالآخر المخيف، كأنني أخرج لتوي من الكهف المظلم، فأتسمر عن الحركة، لكنه يأخذ بيدي ويساعدني على الاختراق، على النفاذ إلى الخارج. أبتسم وأنا أكتشف أننا بالفعل في مرقص، في ملهى ليلي،

وبالتالي فلا أحد يعبأ حقًا بالآخر، ولا داعيَ للقلق. المنظر العام شبه مظلم، مما يساعد على الاختلاط بلا تمييز. لكن الإضاءة الضعيفة تتضاعف بحيلة المرآة، يزيد النور قليلًا لكن دون أن يكون هناك مصدر حقيقي للنور، دون أن يكون هناك نور حقيقي، فقط انعكاس لما هو هناك بالفعل، قرين له، استنزاف. والمرآة هذه هي المرآة في أعلى، في السقف، حيث لا أحد من الناس ينظر إليها أو يلاحظها حتى، لكنها هناك كإله ضعيف، سلطته الوحيدة أنه يعكس للبشر في أسفل صورتهم، لكن من منظور آخر، يرد صورتهم إليهم، حيث لا شيء في الحقيقة يعلو مستوى نظرتهم، أو أفقه، سوى هم أنفسهم؛ رؤوس سوداء متلاصقة تتخبط وتختلط، وتندمج في أحيان نادرة. لكنها لا تستطيع أن ترى أن لا ملامح لها، لا خصوصية لكل منها.

يبدو لي الآن أن السبب الوحيد الذي يجعل المرء يخشى الجماعة، أو يتحسب لها ولحسابها له، هو ما يظنه المرءُ في نفسه، ما يخلقه خيالهُ عن الجماعة، وبالتالي يخلق لها قوانين وحقوقًا. لا شك أن هناك شفراتَ وقواعد، لكن كل ذلك قد يتداعى من أساسه لو لم تترسخ في أذهاننا سلطتها. تلك السلطة هي الحائل الوحيد دون اكتشاف إنه يمكن ردم الماضي والمواضعات، وفتح طريق جديد. "الطريق إلى الخروج" الحقيقي ربما!

تعلو مكبرات الصوت الألمانية بالأغنيات التي شكلت إيقاع الحلم

أو التمرد أو الحب في الثمانينيات، أي التي شكلت أجزاء منا، ولو بلغـــة أجنبية كيفناها معنا. "الثمانينيات فيها حنين" هكذا يعلن الذي جى، وأتســـاءل عما تعنيه الثمانينيات بالنسبة لامرأة ألمانية، لأنها تعني لـــي تعلم الهوية والقدرة على الفعـــل، لكنها تعني كذلك تعلم المهانة والانتهاك، وبداية الطريـــق نحو المحاولة الأبدية - وربما المســـتحيلة - للتكيف، للملاءمة بين شـــعور التدحرج على أسفلت يلفظنا لكننا نرتطم به بســـرعة الســـيارة التي قُذفتنا منها الجماعة، وبين شعور التسامي في كون تخيلي عبقري، ومليء بالوحدة، ربما أيضًا للملاءمة بين انقسام الذاكرة على نفسها بين الماضي الذي أقسم فيه الســـائق ألا ينطلق ألا بعد تنزل المرأة النجسة، والحاضر الذي ينطلق فيه الأتوبيس بلا ســـلطة، وسط طريق مليء بالنور، وربما بإصرارنا على النسيان.

نحن نحب تلك الأغنيات، وأنا أتراقص فرحًا دون أن أتوهم أنني في الثامنة عشرة، أو أن الزمن قد عاد بالفعل إلى الوراء، ومع ذلك أسمح لنفسي بأن أتوهم أن الدي جى يستطيع قراءة أفكاري، ومن ثَم فتلك الأغنيات مهداة إليَّ بشكل خاص!

نقف متلاصقين، ولا نشـــعر بالحرج من ذلك بل نشعر بالطاقة التي تنمو من جراء تراقص الجسدين وملامستهما كل للآخر، كأن في ذلك قانونا مـــن قوانين الديناميكية المجهولـــة حتى الآن. وفقًا

لهذا القانون نفســه، نهرع فجأة نحو ســاحة الرقص الدائرية، أنت تختطف اللحظة، وأنا أثبتها لكي أســتطيع أن أصلها بلحظة أخرى حلمنا فيها بالرقص في ميــدان التحرير قبيل منتصف الليل، تحت الأنوار البرتقالية المتلألئة، لكن الرقصة فشلت حينها وتحولت إلى نص يســرد الرغبة في الرقص. أستدعي اللحظة من الزمن القديم، فتأتى لتجاورنا، لتوضح التباين بين واقع يحجز الحلم، وواقع يسهل مــروره بدرجة مــا، بين الإيهام بالحركة - الذي يرســخ للعجز - والرقص الفعلي، النهائي.

لأول مرة نتبيــن القدرة على الرقص ســويًا، على خلق إيقاع مشــترك وحركة متكاملة. أنظر إليك مليًا كأنما أراك تتحرك لأول مرة، وأنت تنظر إليَّ كأنما تجدني امرأة جذابة للمرة الأولى. النساء الباحثات يتابعنك بحرص، والرجال المنتظرون يتوسمون اللحظة المناســبة، لكننا لا نراهم حقًــا، ولا نعبأ لوجودهم إلا عندما تذهب لكي تأتي لنا بمشــروب فيلاحقنك هن باقتراح سافر، ويبعثون هم إلى بتعليقات من شــأنها اجتذاب الفريســة. نتململ بعض الشيء، لكنا ندرك السياق العام بطريقة أكثر وضوحًا، ثم نتجاوزه. ونعاود الرقص. نعاود الانتشــاء بالرغم من تجاوزنــا للأنماط العصرية المتكررة عابرة القارات.

ببساطة شديدة تلف ذراعك حول خصري. أتكهرب. كان شيئًا

بداخلي ينجذب في اتجاه، بينما البقية تتجمد، وهكذا تولد القشعريرة، من تناقض الحرارتين. تشرد عيناي مجددًا نحو الركن المظلم على حافة ساحة الرقص. تلتقي بعينَي امرأة وحيدة، تجلس وراء الستار، فقط جزء من جسدها يظهر، البقية يداريها الستار. هي لا تبحث عن أحد، لا تنادى أحدًا، ولا تعبأ بمن يلحظونها، وبالتالي فهي ليست ضعيفة، لكنها بالتأكيد تنظر إلى العالم من وراء حافة الستار. تنظر في عيني مباشرة كأنها تعرفني، تنتظرني. أتكهرب من جديد، لكنني لا أجد مكانًا بديلًا أشرد إليه. هي تبدو كمن يعرف جيدًا ما يريد. بالرغم من أنها تشبه نساء الحرملك، أو محظيات الجيشا اللاتي لم يأت دورهن بعد. هي تخلع عني ملابسي بنظرتها، ملابس السهرة التي ابتعتها خصيصا للمناسبة، للفرحة الممكنة، تعريني وتفتش في تاريخي، تتحدى صدق إحساسي بالقدرة على التحول. وتعيدني إلى نقطة الصفر.

أنا أعرف تلك المرأة، صادفتها من قبل، غير أننا أبدًا لم نتبادل أية عبارات. في حجرة خلع الملابس بالجمنيزيوم، كانت هي هناك، تجلس وراء الستار. كانت النساء يبدلن ملابسهن دون حرج، دون خجل أو اعتذار عن عري أجسامهن. وكانت هي جالسةً هناك، شبه متخفية دون أن يلحظها أحد. كانت تراقبني وأنا أخلع ملابسي، وأحاول مفاداة نظرات النساء اللاتي لا يعرفن شيئًا عما يعنيه لدى

التعري. هاتيك هن النساء الدقيقات، العمليات، اللاتي لا يرين في المرآة سوى زجاجٍ عاكسٍ، وبالتالي لا يفهمن خوفي من النظر في المرآة، لا يفهمن جسدي الغائم، المستدير كأنه غارق في دوامات لا نهائية من التكرار والإخفاق والعار. ومع ذلك، أستمر، أجاهد كي أستمر في الوجود بينهن، لأنهن يخلقن لي عالمًا خاصًا من الحرية، من التشابه شبه المستحيل، من الاحتماء في لذةٍ ما شبه طفولية، وأنثوية للغاية. أما امرأة الستار، فهي الوحيدة التي ترصد ما يجول بخاطري، كأنها تقرأ جسدي. وأنا أرفض وجودها، تحديدًا عندما أشعر أنها تعيد إلى -بنظراتها- كل التاريخ الذي أحاول خلعه. لكنها تتبعتني هناك، مثلما تتبعني الآن في ذلك الركن المظلم في ليلة رأس السنة، محاولةً أن تعيد كل الحواجز التي عبرتها للتو. لكنها تستكثر عليَّ ذلك، تنزع قيمتي، تريد أن تقذف بي إلى الإسفلت مجددًا، اختصارًا لكل السنين والتحولات والجغرافيا المغايرة.

لكنـــي أقاوم. أبادلها النظرة بنظرة تشـــبهها، أخترقها، أســـائل وجودها، أســـتفزها أتحداها. ألعب لعبتها، وبالتالي تنتفي ســـلطتها هكـــذا. ينتفي الخوف منها. والانجذاب إليهـــا. ويحدث هذا بقرار، ودونما أية عمليات نفســـية مركبة. ثم تمتد ذراعه الأخرى وتطوق خصري، تلتقي يـــداه على ظهري، ولا أعرف إن كان قراري هو الذي شـــجعه، أم أن مبادرته التي نمت في رأســـه هي التي دفعتني

إلى هذا القرار. لكنني أعود إليه شــبه مكتملة، أعانق الدائرة التي يصنعها حول جســدي بذراعيه، كأنها دائرة حماية، دائرة طاقة لا تكتمل بذراعية فحسب، وإنما بجسدي الذي في مركزها.

نســتكمل الرقصة إذن، وتلتقي عيوننا مجــددًا، وتدور الطاقة والمحبة داخــل الدائرة، تتجدد وتنمو، وتتكامــل، حتى لنكاد نفقد الإحساس بالحدود بين جسدينا، كأن ذراعيه هما ذراعاي تطوقانه. ونستمر.....

شيء ما في استمرارنا يتحدى الزمن، ليس بغرض تثبيته وإنما لدفعه إلى الأمام. وهكذا يبدأ العد التنازلي نحو العام الجديد، يبدأ العد التصاعدي للفرحة، لفرحتنا بلحظة هي بوابة حياة جديدة. تتبدل الأغنيات بسرعة الثواني التي تقترب من الثانية عشر، منتصف ليل العالم، لحظة نادرة لتوحد مشاعره وآماله. نتوقف عن الرقص وننتظر. ننتظر الطاقة الفلكية التي سوف تظهر بعد منتصف الليل مباشرة.

ثم تدق الساعة، وتحدث القبلة التي تكسر موات سنوات وتحيي، وتوقظنا على فالس جميل. لابد إذن أن نرقص هذا الفالس المتأخر، بالرغم من أننا لا نعرف الخطوات، ولا نحفظ الحركات. لكننا نحاول، والزمن الجديد يمدنا بطاقة جهنمية لكي نحقق الرقصة التي

طالما اشتاقتا إليه. ومن ثم فهي تحدث بقوة رغبتنا فيها. وتتصاعد حتى لتعكس مرآة السقف صورًا كثيرة متتالية لرجل وامرأة عبرا من ميدان التحرير برقصة متخيلة، وتعثرا في فخاخ عديدة، وأخفقا، وأحبطا، وابتعدا، واقتربا وتبادلا الأماكن، وتشابها، وتكاملا، حتى اندمجا في فالس برلين ليلة رأس السنة.

***

الشارع في الخارج مليء بالمفرقعات والصواريخ الملونة، بصبية يطمحون - كالعادة - في تفجير المدينة، وبكبار يأملون تحقيق ربح استثنائي بتلك المناسبة. نتقدم بينما الفخاخ منصوبة في انتظارنا، وأنت تسخر من ذلك كله، وتصر - كعادتك - أن الأمان يأتي من الداخل، وأن الخوف هو الذي يفتح الباب للعدوان. وهكذا لا أملك إلا أن أحتمي بك، كتدريب استراتيجي على التخلي عن الخوف تمامًا ذات يوم، وعلى تحويل أي شارع إلى وطن شبه مؤقت أملك مفاتيحه، وسراديبه التي تؤدي إلى مصر. تعتصر كفي، وتعيدني إلى شارع سليمان باشا وميدان طلعت حرب، إلى التجوال الموحي، وشق الطريق نحو هوية ليس من السهل وصفها، أو اختزالها في كلمات. فجأة تتشابه الشوارع، وتختلط الأزمنة خلطًا مبهجًا. في ذلك شيء يستدعي الضحك، بينما دمعة وحيدة قد تسقط من العين رغمًا عنا، ودون مبرر واضح وراءها. لكننا نسرع من خطانا، نسابق فرحتنا وشعورنا الجارف بالاكتمال، نسابقنا.

***

ينفتح الباب عن آخره. الباب المنتصف، المتأرجح بين الموت أو الحياة؛ أو باب الحجرة التي بلا ملامح. نحن هناك، سويًا، وبطريقة ما في فضاء غير زمني. كل الأشياء التي قد تدفع الإنسان إلى الحركة والتفكير، قد تلاشت. تلاشى صخب كثير، ولم يبق إلا الفعل الذي قد ينساب من تلقاء نفسه، كنظرية السقوط الحر. هذا هو مشهد الحب إذن، ذلك الذي ينتظره عمال الاستديو لكي يشبعوا عيونهم بلحم الممثلة، بالبورنوجرافي الحية على بعد أمتار منهم، وبقدرة الممثل الذكر على الإنابة عنهم فيما يطمحون إليه. لكن الكتابة لن تسمح أبدًا بهذا التماثل، لن تسمح بالإثارة الحية، بما يغذي العين ويطلق الوحش بالداخل. الكلام أصم على الورق، مسطح، رسومات لا معنى لها ولا طاقة بها، والقراءة هي الفعل الوحيد في تلك اللعبة.

ليست هناك إضاءة، ومن ثَم فمن الصعب وصف المشهد، أو تشكيله بطريقة بصرية. ليس هناك حوار أيضًا، لذلك فالحصول على الدراما لن يكون هينًا. فماذا هناك إذن، إن لم تكن هناك صورة ولا صوت؟ وأي نوع من السينما تكون تلك؟! ربما تكون سينما الوهم، أو سينما الروائح والملمس، والرؤية أبعد من سواد الشاشة.

"هي ترتمي بين ذراعيه، ترتمي كأنها سقطت من الطائرة على

شبكة الإنقاذ. تتمرغ في صدره. وهو يحتويها، يدعها تسقط داخله حتى النهاية. يعتصرها كأنما يريد أن يستخرج منها مصدر الألم، كأنما لو ضغط على جسدها فسوف تنزه. هي تشعر للحظة أنها محطمة، وأنها تستند إليه لكي يمدها بالطاقة ويدفعها إلى الأمام، لكنها سرعان ما تدرك أنها مرهقة فحسب، إرهاقًا تاريخيًا، وهو يفهم تمامًا معنى ذلك.

ببطء يقبلها في جبينها، ثم يمطر وجهها بقبلات صغيرة سريعة، كأنه يضمد البشرة بفعل الحب هذا، يعيد إلى الملامح نضارتها. تضحك، وتشارف على البكاء. يحتضنها مرة أخرى، تسكن أنفها في الركن الذي بين أذنه ورقبته، تتنفس رائحته، ثم تلتهم هذا الجزء من رقبته ومن خده ومن شفتيه. وتبدأ في الاستيقاظ. يقبض على عظمة الحوض، تفاجأ بهذا الجزء من جسدها، بأن هذا الجزء من جسدها مازال موجودًا، بأنه يستطيع أن يقبض عليه هكذا كأنه يملكها. تتذكر إحساسًا ما بالألم مقترنًا بذلك الجزء، لكنها لا تستدعيه، لا تحلله، هي تتذكر فحسب أنه كان هناك ألم، وأنها كانت قد قاربت على التماهي معه إلى حد ولادته. ثم تتجاوز الإحساس. هو يعرف كل ما يطرأ بداخلها، يراقبه وهو يحدث، يراقبه وهو يتلاشى، ويتبع حدسه في أن الخروج ممكنٌ هذه المرة، في أن العام الجديد نفسه مركبة رائعة لنقل الزمن، والتحرك بالتاريخ. وهي معه. أنفاسهما متلاحقة، متوحدة في إيقاع الانصهار لخليتين

تتكونان وتتكاملان وتنتشيان بالقدرة على الفعل.

يجذبها إليه في عنف، هي تستجيب، وتدرك - كأنما للمرة الأولى - حقيقة الرغبة. يجذبها ويدمجها فيه، ويندمج فيها. تصدر كلمة، كلمة صغيرة، مقتضبة، لكنها صادرة من العمق، دون أن نعرف تحديدًا من منهما نطق بها.

كالحقائق الغريزية والبدائية يكونان، هكذا بلا وصفة جاهزة. بلا اتفاق أو تدريب. وبلا ألم. بلا ألم مطلقًا. هو حريص جدًا على ألا يحدث أي ألم، وأنا لم أعد أتذكر لماذا كنت مهمومة بالموت إلى تلك الدرجة. *لكني لا أحاول أن أخفي الجروح القصيرة المتناثرة على لحمي*. أنا لا أخفي شيئًا. لا أغيِّب شيئًا. أشعر بجسده حاضرًا للمرة الأولى، لكني لا أستطيع أن أصف أي شيء فيه لأنني لم أعد قادرةً على الانفصال عنه، أستطيع فقط أن أقول أن شيئًا يحدث، أن هناك دفعةً ما تجعلني أشعر كحزمة من الطاقة، فلا أتمكن من الخروج خارج نفسي، لا أتمكن من مراقبته ورصد ما يدور، لا أتمكن حتى من التوقف. يبدو أن كل معرفتي السابقة تتضاءل الآن. الأشياء التي كنت أسميها، كنت أقتلعها، ومن ثم فالموجود الآن كون آخر من.....

لكنني بداخلها، جزء منها، ومع ذلك أشعر بأنني الكل، وبأنها هي جزء مني. ولا أعرف أيهما الحقيقي، لكنني على يقين بأنها

تعرف بوجودي، بأنها تلمسني كلما لمست نفسها، كلما لمسته، وهى تعرف ذلك أيضًا. تعرف أن البوابة قد فُتحت عن آخرها، بوابة جسدها، وإنها عندما تمارس الحب معه فإنها تمارسه معنا نحن أيضًا، المرأتان المتنحيتان في النص، والمتشحتان في الحياة وراء قناعها، قناع المرأة المتحققة، اليومية. لكن هو أيضًا يعرف. يعرف أنه يفتح ذراعيه لثلاث نساء دفعة واحدة، وإنهن لن يتنافسن فيما بينهن، لأنهن في النهاية حزمة واحدة، ولأنه يحسن توزيع الرعاية لمجرد أنه لا يفرض أي شيء على نفسه.

وكالحقائق الغريزية والبدائية، لا أبحث عن طريق، عن طريقة، لأنه ليست هناك حاجة إلى ذلك، لأنه ليس هناك هدف، سواءً كانت اللذة أو الأورجازم أو أي شيء آخر. أتشبث فحسب بتلك المعرفة الجديدة، إن العالم مفتوح، وإنني حاضرة، فاعلة، خارج نطاق الموت والألم بكل معنى الكلمة. أتشبث بتوحدنا، بالتصاقنا، كأننا تروس في كيان واحد، لا مجال للفصل بين روحه وجسده وقلبه أو عقله.

أنا لا يستوقفني خوف في أن جسدي قد يتوقف عن الشعور فجأة، في أنني ربما أفشل في تحليل الحركة بطريقة تدفع الشلل بعيدًا عنى، تحديدًا لأنه لا يمكن لجسدي أن يعارضني ويعيدني إلى الوراء طالما أنا أنصت له، وأنا في الحقيقة لا أنصت له فحسب،

بل أكونه. لن يعارض هو نفسه إذن، لن يجلد نفسه بالأصوات المتضاربة والذكريات الموجعة، لأنه لا جسد هناك يفضل اليأس على الأمل، أو الألم على الفرح، نحن الذين نجبره على الألعاب الماكرة التي ربما تحسنت الحياة كثيرًا بدونها. ومع ذلك، فهو لا يتوانى في حرصه على الانتباه لمجال الصعوبة أو السهولة في حركتي، وهذا هو الشيء الوحيد الذي يلفتني وسط حزمة الطاقة الخرافية التي أندمج فيها.

أندمجُ أكثر وأشــعر به وهو يمارس الحــب معنا، يجمعنا في امــرأة واحدة، ربما حتى يحتوينا. ننصهر ســويًا، ونتوزع كيانًا جديدًا. وعندما يتسارع الإيقاع، تقترب الولادة، أو هو يتسارع لأن الولادة تقترب. لكنها ليست بالشيء الهين، هي جماع متناقضات كثيرة، أزمنة متضاربة، وهواجس تاريخية. لكنها تقترب مع ذلك كله، تتضافــر. وكالحقائق البدائية والغريزيــة، تحدث من تلقاء نفسها، ثم يلحق بها الذهن. يلحق بها........

***

نظرت في عينيك، واسترخت أجفاننا. أرحت وجهي في الركن الذي بين أذنك ورقبتك. ورحت أتنفس مليًا، عميقًا، بينما يداك تتخلل أصابعي، وجسدانا يخلقان في الظلمة نورًا، ويفتحان فضاءً مغايرًا. اكتملت الدائرة إذن، وتحولت الأصوات القديمة والحقائب المغلقة إلى مادة جيدة للكتابة، لإعلان القطيعة مع الماضي. أعني لمعاودة الكتابة..........

الآن أكتب، ولحظة الكتابة هي لحظة السرد هي لحظة الفعل. أسحب نفسي من الفراش، وأجلس هنا عاريةً لأكتب. أستجمع خلايا غريزة البقاء التي تفجرت في رحمي، وأكتب بها. أضطلع بفعل النهوض الأخير، وأنا أحمل بداخلي كل هاتيك النساء، اللاتي هن أنا. وأبدأ هذا النص بأن أواجه حقيقة أن "لا شيء ينمحي" أن "وجوه الماضي صامدة مازالت، تستعصي على النسيان". ولا أستطيع أن أكشف لحظة الكتابة إلا الآن. لا أستطيع أن أقول - إلا الآن - إن كل السرد الماضي قبل هذه اللحظة، هو صنيعة هذه اللحظة، وينتهي بكشفها، فلحظة الكتابة الطويلة هذه، هي التي أفرزت تلك الصفحات كلها، ولما أنهت مهمتها السردية أعلنت عن زمنها، عن حاضرها الخفي، حاضري أنا، الكاتبة النهائية، مؤلفة كل تلك الأصوات، ومدونتها.

أنا العارية أخيرًا، بشجاعة واستمتاع، في مواجهة مرآة الكتابة. أعرف أن العالم أرحب كثيرًا مما نعرف، وأن لا شيء نهائي، بالرغم من عدم قدرتنا على استيعاب ذلك. أعرف أيضًا أنه يجب أحيانًا الاستسلام، ومعانقة الحقائق مهما كنا نرفضها، أنه ينبغي أحيانًا معانقة الألم، احتواؤه، في وحدته وتشوهه. لأن الخلاص قد يكون أيضًا أقرب كثيرًا مما نظن. فقط عندما نعانق الأشياء. نستطيع أن نحولها، وأن نتحول معها، بها.

بهذا النص، تمكنت من أن أضغط على الخطوط الطولية القصيرة وأجعلها تنز. تنز تلك العبارات، والكلمات، المحتشدة بالصراع، بالجنون، بالرغبة في التجاوز. وبالتجربة التي وراء النص، استطعت أن أفهم، أن أكون المرأة التي تكتب الآن.

لا شيء في لغتي يعارضني الآن، لا حروف تتحشرج في حلقي، لا معان تفرض نفسها رغمًا عني. وبطريقة ما، أستطيع أن أرى حياتي كلها في لقطة واحدة، وأدرك السر وراء عجزي عن كتابة يومياتي.

***

لم أعد بحاجة الآن لكي أقول "كانت المرأة على حافة الموت". لأنني لست بحاجة للإبعاد، لست بحاجة لضمير الغائب. يمكنني ببساطة أن أقول إنني اقتربت من الموت أكثر مما ينبغي. اندفعت

في مقامرة غلبتني، أو كادت. تلك لعبة التلاعب بالذات كي نكتشف ما هو حقيقي مما هو زائل، كي ندرك القيمة، أو نعرف ما هو الوجود.

لكن قبل الموت بثانية، أو يزيد، تسيدت الشهوة للحياة، اقتحمت الجسد، تخللته، وأرست غريزة البقاء. هكذا عنوة.

وهكذا أيضًا صرتُ في سلام. أجلس في حجرة المعيشة الغريبة، في المدينة المنقسمة على نفسها، وفي مركزها قصر الدموع، قصر الوداع والاستقبال، الذي ودعته فيه واستقبلته من جديد، كأنها سنة أبدية من سنن برلين. لكن لا غربة بي، ولا مقاومة. ليس بي سوى السعادة لأن الحب ممكن، لأنه هناك، يرقد في الحجرة الداخلية، يبتكر لها ملامح، ويحلم، ويرسم صوره على الشاشة. ولأنني هنا أسطر تلك العبارات باللغة العربية، أنتمي مرة أخرى، وأعود إلى الوطن.

كان من الممكن إذن أن تضع صدرك على صدري، كتفيك على كتفي، وتتلامس أثداؤنا، بلا إطار مجازى. كان من الممكن أن نتطابق أو نتناسب معًا، ونتبادل كل ما نريد أن نتبادله.

بل إنه كان من الممكن أن نتكون هكذا:

لحظة سكون كاسحة

فوران للذاكرة

نقطتا ضوء هلاميتان

متباعدتان

تنيران تدريجيًا

الشاشة البيضاء

حتى تنضجا تمامًا

حتى تحشدا الشاشة

بألوان لقائهما

الذي يتقافز

إلى الخارج.

أجل، ذلك أيضًا ممكن.

تمت كتابة هذا النص بين برلين والقاهرة

• • •

من الجائز قراءة هذا النص باعتباره متابعة لرواية "قميص وردى فارغ"، شرقيات 1997، دار أزمنة 2005.

المؤلفة في سطور

نورا أمين

- مخرجة مسرحية مصرية وممثلة وكاتبة ومترجمة ومصممة رقص. أسست عام 2000 فرقة "لاموزيكا" المسرحية المستقلة، وقدمت من خلالها 35 عملًا مسرحيًا من إخراجها، من أهمها: "الضفيرة، قط يحتضر، امرأة من الماضي، أبواب نورا، هنا السعادة، العشيقة الإنجليزية، عدو الشعب، بيت النور".

- قدمت دورات تدريبية في التمثيل والرقص والتعبير الحركي ومسرحة السيرة الذاتية في معظم أنحاء العالم. كما نشرت ككاتبة قصة وروائية: "جمل اعتراضية (1994)، طرقات محدبة (1996)، قميص وردي فارغ (1997)، حالات التعاطف (1998)، الوفاة الثانية لرجل الساعات (2000)، النصف الثالث (2003)، قبل الموت (2010)".

- قدمت كمترجمة عن الفرنسية والإنجليزية عشرين كتابًا، منها: الفضاء المسرحي في المجتمع الحديث (1993)، مسارح آسيا

(1995)، منهج أوجستو بوال المسرحي (1997)، المسرح المواطن (1998)، مسرحيتان لمارجريت دوراس (1999)، مفارقة الممثل (2000)، أحجار من الماء (2016) البنت الأخرى (2016). أسست عام 2011 المشروع المصري لمسرح المقهورين، وهو شبكة مسرحية وطنية للمسرح من أجل التغيير، تبعتها بالشبكة العربية للمشروع المصري لمسرح المقهورين عام 2012 في لبنان والمغرب، وقدمت "حكاياتنا" (مبادرة للحكي الشخصي على المقاهي الشعبية بمدينة الإسكندرية) منذ عام 2009. أستاذ (غير متفرغ) سابق بأكاديمية الفنون، شاركت في تأسيس قسم إدارة الفنون والتنشيط الثقافي بالمعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون (2009 - 2010)، أستاذ زائر بجامعة برلين الحرة (2004 - 2005) وكلية ماونت هوليوك قسم المسرح (2005)، وخريجة معهد الإدارة الثقافية بمعهد فيلار التابع لمركز كون كنيدي لفنون العرض بالولايات المتحدة 2004، كذلك حاصلة على لقب القيادة الشابة في فنون العرض بمصر من المجلس الثقافي البريطاني 2010، وعلى زمالة مركز مسرح المقهورين بالبرازيل 2003. حاصلة على زمالة المركز البحثي لتناسج ثقافات العرض ببرلين/ألمانيا 2015 - 2016.

وتماهى الجسدان، الروحان. كان أن تبادلنا الاماكن، مواطن العجز والقوة، وأشكال الاكتمال. كأنما أعطيتها روحي التي كانت ملكها من الاساس، وأخذت جسدها العنيد اليقظ، لكي نخلق امرأة واحدة بروح وجسد مكتملين. هكذا تطابقت تمامًا المرآة مع الاصل مع الصورة، للمرة الاولى، لم يعد هناك فقد أو افتقاد أو غياب، وقتل الموت أو تجميد الوقت لم يعد همًا أساسيًا تتوقف عليه الأشياء.

لوحة الغلاف: إيجون شيلي   تصميم الغلاف: هشام نوار

دار العين للنشر
Elain

9 789774 904189